جمعية أولي العزم الدينية
لجنة الدعوة و التراث

اسرار القران

الجزء الثامن

الامام ابى العزائم

تفسير اسرار القران
الجزء الثامن

قوله تعالى :" **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ" (111) .**

بعد أن نهى الله تعالى عباده المؤمنون به وبرسله والكتاب الذى أنزل معه عن سب أصنام الكافرين وأوثان المشركين , لكى لا يتخذوا من ذلك مبررا لسب الله تعالى عدوانا وجهلا , فيهلكون أنفسهم وغيرهم معهم , وأوضح أنه زين لكل امة عملهم , لأنه سبحانه لهذا خلقهم , وبين أن الآيات والمعجزات التى يطلبونها لن تفيدهم فى تغير عقائدهم , الا أن يشاء الله ربهم , لأنه هو سبحانه الذى يقلب أفئدتهم وأبصارهم كيف يشاء , ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون . شرع يؤكد لنا ذلك فى هذه الآية فقال تعالى " **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ**" أى ولو كشفنا لهم عما فى الملك من ملكوت , وأريناهم الملائكة عيانا يتحدثون اليهم ويحادثوهم " **وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى**" من برزخهم وحذروهم من الكفر والشرك بالله , وأطلعوهم على ما رأوه بعد مماتهم لما آمنوا .

قوله تعالى " **وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً** " أى وحتى لو جمعنا عليهم كل المخلوقات صغيرها وكبيرها , الخفى منها والظاهر ,فيخاطبهم مبينين لهم صدق الايمان بالله تعالى , وأن الدين عند الله الاسلام " **مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ** " بك ولا برسالتك ولا يعترفوا بأمانتك التى تؤيدك " **إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ** " أى الا اذا أراد الله لهم الايمان , فهو سبحانه الذى يغير ويبدل ويمحو ويثبت , والدليل قائم فى ايمان البعض منهم " **وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ** " أى ولكن الاكثرية العظمى من الناس لا يعلمون سر الحكمة الالهية فى خلق الأضداد , ووجود التباين والاختلاف والتفاوت فى كافة المخلوقات , واعتماد كل مخلوق فى مقومات حياته على مخلوق آخر , مما يوجب العداوة التقليدية بين جميع الكائنات , فيوجد التوازن بينهم فلا يطغى قويهم على ضعيفهم , ولا كبيرهم على صغيرهم .

ولا نخلى هذا المقام من ذكر ما فى الآية من اشارة خفية , تومى الى سر القدر , فيما قضى به الله وبما به أمر , فقد أمر الله تعالى ابليس بالسجود لآدم , وقدر عليه أن لا يسجد , وأمر آدم الا يأكل من الشجرة , وقدر عليه أن يأكل , وأمر خليله ابراهيم بذبح ولده البكر اسماعيل , وقدر عليه أن لا يذبح , وربما يرى قصير النظر أن فى هذا اختلاف وتعارض , مع أنه فى حقيقته هو عين الكمال المبنى على امتزاج الجلال بالجمال , وقد ذكر الله تعالى تلك الحقيقة فى قوله تعالى " **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً** "[1] .

واشارة اخرى توحى بأن كل مافى الأكوان , على هذا الوضع القائم فى كل زمان ومكان , من وجود الكفر والايمان , تلازم الهداية مع الغواية , والحق مع الضلال , والجهل مع العلم , والصدق مع الكذب , الامانة مع الخيانة , والاخلاص مع النفاق , الخ ! هو الميزان الذى يرفع به الله أقواما ويخفض به آخرين , لأنه لو كشف الحجاب وظهر الغيب , ورأى الناس الملائكة يمشون بينهم , واتصل الأحياء بالأموات وسمعوا منهم , لما غير هذا من الواقع شيئا , فسيظل المؤمن بالله على ايمانه , والكافر على كفره , زالمشرك على شركه , بل وربما ازداد كل موصوف فى صفته و

---

(1) سورة الشرح : 5 – 6 .

فالمؤمن يزداد ايمانا على ايمان والكافر يزداد كفرا , والمشرك يزداد شركا , الا أن يشاء الله أن يغير هذا الوضع القائم الى ضده , وهذا أمر عجزت كل الخلائق عن فهمه وادراك سره , ولله فى خلقه شؤون يبديها , ولا يبتديها ,

قوله تعالى : " **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُون "ِ (112)**

هذا لأن العداوة بين المهلوقات على اختلاف أنواعها أمر حتمى بسبب اعتماد بعضها على بعض فيما يقيم أودها ويحفظ عليها حياتها , وكذلك الصراع بين أفراد وجماعات الجنس الواحد أمر قائم بسبب التنافس على أداء الرسلات من جانب , وعلى حب التملك والسيادة من الجانب الآخر , ولهذا أفتتح الله تعالى الآية بقوله سبحانه " **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً** " أى وبناء على سنتنا فى هذا الوجود جعلنا لكل نبى من الأنبياء السابقين أعداء من " **شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ** " أى مردة عتاة وجبابرة عصاة من الانس والجن اتصفوا بالكفر والفجور وجحود النعمة والتكبر فى الأرض بغير الحق " **يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً** " أى يوسوس بعضهم الى بعض أقوالا مزخرفة , ويزين بعض أعمالا خاطئة , ليقعوا ويوقعوا غيرهم فى الخسران والشرور والفساد والغرور " **وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ** " أى ولو أراد ربك الا يفعلوا تلك المفاسد والشرور ما استطاعوا أن يفعلوا منه شيئا , لأننا خلناهم وما يفعلون " **فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** " أى دعهم يدعون حولا وطولا ويفترون أنهم هم الأقوياء الفاعلون , وسيندمون أشد الندم عندما يرون أنهم كانوا قوما ضالين ,

وتنطوى هذه الآية على بعض الاشارات , التى تومى الى فوائد تلك العداوة بسبب المنافسة القائمة بين الأفراد والجماعات . ولما لا , فلولا شدة عداوة الجهلاء , ما ظهر نبى ولاسمع به أحد من العقلاء , وبالتالى لما تمت رسالة من الرسالات , ولا ارتقت نبوة من النبواة , وما ارتفع انسان درجة من الدرجات ولاعلا مقام من المقامات , ولا فضلت صفات , ولا مدحت أخلاق وذمت أخلاق , ولا تميز الصدق عن النفاق , فالأعداء للرسل بمثابة النار للذهب , فبهم يرتقون وعن طريقهم يعرفون , فلولا عداوة الشيطان ما ارتقى آدم الى خلافة الرحمن , ولولا عدو ابراهيم الخليل , ما نال مقام الخلة والسلام من الله الجليل . ولولا عداوة فرعون لموسى الكليم , ما نال المحبة والمكالمة من العليم الحكيم , لأن هذه العداوة هى البلايا والمحن , التى فى طيها العطايا والمنن , وصدق الله رب العالمين , فى قوله عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وأنتم لا تعلمون , فكم من نعمة أجراها الله بسبب منافسة المنافسين , وكم من خير وبر وعلو مقام ناله بعض الصالحين , بسبب عداوة بعض الجاهلين ..

قوله تعالى " **وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ "(113)** .

فى هذه الآية صلة ارتباط بالآية قبلها بمعنى ولتصغى الى ما يوحى به أعداء النبيين من شياطين الانس والجن " **أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ** "أى المفترون على الله كذبا , المغرورون بما نالوا فى الحياة الدنيا , لا يستمع الى زحرف أقوالهم ويركن الى تقليدهم , سوى من خلت قلوبهم من الايمان بيوم القيامة " **وَلِيَرْضَوْه** " أى يقبلوه ويرضوا به لأن أصغاء القلوب أعم وأشمل من اصغاء الآذان لما فيه من دلائل الرضاء بما يستمعون اليه .

قوله تعالى " **وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ** " فيه أثبات بأن الذين لا يؤمنون بالآخرة , صاروا مثل شياطين الانس والجن , وأصبحوا أعداء للانبياء والمرسلين بما اقترفوا من خطايا الاصغاء الى أقوال الشياطين , والعمل يما يفعلون .

وطى هذه الآية اشارة تنبئنا بما انتشر فى عصرنا من تعميم زخرفة الأقوال وتزين الأعمال , بسبب تقدم وسائل الاعلام , وسيطرة الصهاينة اليهود عليها , والعمل على تحسينها حتى تصل الى آذان العامة من الجهلاء , فتؤثر فى عقول الصغار قبل الكبار وتطبعهم بطابعها المغير لتعليم ديننا [1] .

قوله تعالى " **أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ" (114)**

نزلت هذه الآية عندما طلب الكفار والمشركون من النبى ε أن يجعل بينه وبينهم حكما يحتكون اليه ليحكم أيهما على الحق فانزل الله تعالى لنبيه ورسوله أن يرد عليهم بقوله " **أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً** " أى هل تريدون منى أيها المنكرون لرسالة رب العالمين , أن أطلب بشرا ليكون حكما بينى وبينكم , وأجعله يقضى فيما أرسلنى به الله اليكم " **وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً** "تفصيلا كاملا بلسانكم ومدلول كلماتكم ومعانى مفهومكم حتى صار الحق من الباطل ظاهرا واضحا بأجلى بيان " **وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ** " قبلكم من علماء اليهود والنصارى الذين علمناهم التوراة والانجيل " **يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ** " أى يعلمون عن يقين حق أن القرآن منزل من عند الله تعالى حقا وصدقا , أنه الصواب فى القول , والحكم الفاصل بين الحق والباطل ,

قوله تعالى " **فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**" أى الذين يكثرون الكلام مع قوم ظهر أنهم يتجاهلون الحق ويتشككون فيه مع وضوحه , وعلمهم بأنه عين الصواب وبدليل عجزهم عن اتيانهم بأقصر سورة من مثله , والمراد بهذا النهى من الله تعالى للنبى ε هو التقرير الجازم للكفار بأن القرآن حق لا ريب فيه , ومن ثم فلا مجال لتحكيم المحكمين ..

وفى هذه الآية اشارتين : الأولى تومئ الى شئ محسوس ملموس وهو أن الصانع أدرى من غيره بما يصلح صنعته وما يفسدها , وعلى هذا القياس يكون الخالق هو الأعلم بما ينفع خلقه وما يضرهم , ومن يوم أن ترك المسلمون العمل بالدستور القرآنى , والعالم كله يتخبط فى ظلمات الجهالة والضلالة كما كان قبل اشراق نور الاسلام ,

والاشارة الثانية تبين مدلول كلمة التفصيل , التى تعنى الشرح والتوضيح والبيان الصريح , والتفسير بأقرب تعبير الى مدارك البشر و درجات عقولهم , وقوة أفهامهم , فنرى أن الله تعالى قد خاطب الناس اجمالا وتفصيلا , وأحكاما وتأويلا , وكلمهم بأقرب اللهجات اليهم , وأوضح التعبيرات عندهم , نوع لهم الجمل وأرشدهم الى أحسن عمل بأفصح العبارات , وأظهر الاشارات , وجلى البينات , حتى لا يكون لأحد حجة , ولا لمنكر محجة , وصدق الله سبحانه فى قوله " **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** " [1] .

قوله تعالى " **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ "(115)**

---

[1] يشر الامام رضى الله عنه الى دور (السينما)وما تعرضه والاذاعات وما يقال فيها فكيف الحال الآن وقد ظهرت الاذاعات المرئية كالتلفيزيون والفيديو .

[1] سورة القمر : 17 .

بعد أن المح الله تعالى فى الآية السابقة الى معنى التعجب من جهلاء قريش الذين يطلبون من رسول الله حكما غير الله , ووضح لهم أن ما بين أيديهم من كتاب مفصل فيه الكفاية , وبين لهم أن أحبار اليهود ورهبان النصارى من أهل الكتب السابقة يعلمون حق اليقين أنه منزل من عند الله تعالى بدليل ايمان بعضهم به , كما نهى الله رسوله ε عن سماع جدال الممترين الذين يعلمون الحق ثم يمارون فيه , ناسب أن يذكر فى هذه الآية حقيقة كل الحقائق فقال سبحانه " **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً** " أى تم قضاء ربك كما قدره فى سابق علمه الازلى , فلا راد لقضائه وقدره , ولا مبدل لكلماته وأمره , اذا أراد شيئا انما يقول له كن فيكون , فكلامه صدق محقق , وقضاءه عدل لا ظلم فيه , ومعنى قوله " **لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ** " أى لا يستطيع أحد من عباده أن يغير حكما من أحكامه , أو يزيد شيئا فى ملكه , " **وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**" أى أنه سبحانه موصوف بالسمع الذى يسمع به دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء , كما أن علمه محيط نما كان وما يكون من كافة الشؤون والأشياء .

تشير هذه الآية الى كلمة "كن" التى بها تم الوجود كله , فصار دالا بوجوده على قدرة الله فى ابراز ما يشاء وفق مراده سبحانه , فكلمة الله ليست مركبة من حرفى الكاف والنون , ولكنها فى حقيقتها ارادة الهية , ومشيئة ربانية , تبرزها قدرة أزلية , وحيطة علمية , وحكمة ابداعية , ووسعة أبدية , تجلت بمقتضى ظهور أسماء الله الحسنى وصفاته الأسنى , التى مقتضاها تكون كلمات الله فى غيب بطونها ظاهرة جلية , كما تكون فى نفس الوقت فى نور ظهورها باطنة خفية , وهذا هو عين الصدق الذى به يتحقق الوعد والوعيد , والعدل الذى بمقتضاه يكون الثواب والعقاب , نسأل الله تعالى أن يعاملنا برحمته لا بعدله أنه أرحم الراحمين ..

قوله تعالى " **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُون**" **(116) .**

بعد أن أثبت الله تمام حدوث ما قدره فى سابق علمه , وبين أن كلماته صدق واقع لا محال من تحققه , وأن قضاءه عدل لا تشوبه ادنى شائبة من ظلم , وأظهر أنه أصدق القائلين , فليس أصدق من الله قيلا , وأنه أعدل الحاكمين , فليس أعدل من الله حكما , ناسب أن ينبه سبحانه فى هذه الآية كل انسان ويحذره من الركون الى الكثرة الغالبة من الناس فقال تعالى " **وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ**" أى وان تتبع أراء ومعتقدات الأكثرية من الناس , الذين انحصر تفكيرهم فى كل ما يخرج من الارض نم طعام وشراب ومعادن ورياش وزينة , واقتصرت هممهم على ما يملأ بطونهم ويشبع رغبات نفوسهم من حظ وهوى , يضلوك عن طريق الحق , ويبعدوك عن سبيل الصدق , الموصل الى الله خالق الخلق , لأنهم فيها يتعلق بالمعانى والروحانيات " **إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ** " أى استحوذ عليهم الشيطان فأبعدهم عن طريق الرشاد , ومال بهم الى طريق الفساد , فصاروا لا يتبعون الا ما يزينه الخيال , ويصوره الوهم من ظن وتخمين , والظن لا يغنى من الحق شيئا .

قول تعالى " **وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُون**" أى يحزرون غير مستندين فى ظنهم الى دليل أو برهان , وقد نزلت هذه الآية حين قال الكفار فى جدالهم لرسول الله عندما حرم أكل الميتة , ان الميتة قتل الله والذبيحة قتلكم , وما قبل الله أحق أن تأكلوه , فهو رزق ساقته

قوله تعالى" **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**"**(117) .**

من المعلوم بداهة أن الخطاب فى هذه الآية والتى قبلها , وأن كان فى ظاهره موجه الى رسول اللهε , الا أن المقصود به الانسان على وجه العموم , والمسلم الذى عمر قلبه بنور الايمان

على وجه الخصوص , ومعناه أعرف ايها الانسان " **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ** " أى أن الذى خلقك ورباك كما خلق ورب جميع المخلوقات , هو العليم علم احاطة بأهل الضلالة المارقين , الذين ضلوا عن سبيله المبين , وصراطه المستقيم " **وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**" أى كما أنه سبحانه أعلم من كل سواه بأهل الهداية المستقيمين على الطريق القويم ,أسأل الله رب العالمين , أن يجعلنى وأهلى وأخوانى من عباده المهتدين ..

قوله تعالى " **فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ" (118) .**

قوله تعالى " وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ" (119) .

قوله تعالى " وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ" (120) .

قوله تعالى " وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ "(121) .

سبب نزول هذه الآيات الأربعة , ما رواه أبو داود والترمذى عن ابن عباس أنه قال , أتى ناس من قريش الى النبي ε , فقالوا له أتاكل مما تقتل , ولا تاكل مما يقتل الله , فأنزل الله تعالى " **فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ**" الى قوله سبحانه " **وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** " .

وأخرج أبو داود والحاكم وغيرهما عن ابن عباس أن سبب نزول قول الله تعالى " **وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ** " أن جماعة من قريش جاءوا رسول الله فقالوا ما ذبح الله لاتأكلون وما ذبحتم أنتم تأكلون فأنزل الله تعالى تلك الآيات .

وأخرج الطبرانى وغيره عن ابن عباس أنه قال , لما نزل قول الله تعالى " **وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ** "ارسلت فارس الى قريش أن خاصموا محمدا فقولوا له ما تذبح أنت بسكين من حديد فهو حلال , وما ذبح الله بشمشار من ذهب فهو حرام ؟! . فالشياطين هم أهل فارس وأولياؤهم قريش .

قوله تعالى " **فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ** " حال ذبحه , بشرط أن تكون الذبيحة من الحيوانات التى أحل الله لكم , مثل البقر والغنم والابل والطيور وغيرهم , فكلوا من لحمها بعد ذكر اسم الله عليها حال ذبحها , فان كان الذابح مسلما ونسى التلفظ بلسانه فلا بأس فى ذلك ولا حرمة عليكم " **إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ**" أى بالقرآن مصدقين , برسلة محمد مؤمنين " **وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ** " أى وما الذى يمنعكم عن الاكل من لحم الذبيحة التى ذكر اسم الله عليها , وذبحها مسلم يؤمن بآيات الله تعالى , ولو نسى القول بلسانه فقلبه عامر بذكره سبحانه , وما هو الضرر الذى يصيبكم أو يلحق بكم ". **وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ** " أى وقد بين الله لكم ما حرم عليكم أكله فى سورة المائدة ..

قوله تعالى " **إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ** " أى الا ما دفعكم اليه من ضرورة قاسية , كجوع مهلك فى مكان قفر , أو مكان خلا من قوت يحفظ على المرء حياته , أحلت لكم المحرمات , لأن الضرورات تبيح المحظورات . " **وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ** " أى وأن الاكثرية من الناس يحبون الضلال,ويميلون الى أن يضلوا غيرهم , ليكونوا معهم فى دائرة الجهل بالحق يدفعهم

الحظ والهوى بغير علم ولامعرفة ولا حجة ولا سلطان , وانما هو الضلال البين الذى تتسع دائرته وتعم بلواه الأغلبية من الناس .

وقوله تعالى " **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ** " أى أن الله الذى خلقك ورباك هو العليم بالضالين المضلين من هؤلاء المعتدين الذين يعتدون على حدود الله تعالى , ويجدون سعادة فى مخالفة أحكامه سبحانه ويتلذذون بتجاوز الحلال الى المحرمات , ويبتدعون فى سبيل جر الناس الى باطلهم كل ما يزينه ويجعله حلال فتنقلب الآية ويصبح الحلال حراما والحرام حلال بفضل نشاطهم الدائم فى هذا السبيل المعوج .

قوله تعالى " **وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ** " أى واتركوا أيها المؤمنون بالله تعالى كل ما يخالف شرع الله تعالى سواء كان رزيلة خلقية ظاهرة , أو معصية واضحة , أو خطيئة بينة , وتجنبوا أهلها والداعين الى فعلها المصرين على القيام بها , وابتعدوا كل البعد عن ارتكاب الذنوب والخطايا خفية وفى سرية فكل منهم أثم عاقبتة سيئة فى الدنيا والآخرة " **إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ** " بحكم العمل به جهرة أو فى السر أو بمجارات أهل الضلال الفاسقين بحجج واهية , مثل التقدم وحرية الفرد فى نفسه مادام لا يضر غيره , الى غير هذه العبارات المضلة المهلكة لكل الذين يرتكبون المعاصى والذنوب , ويفعلون المحرمات ويكسبون الآثام " **سَيُجْزَوْنَ** " عذابا من ربهم وعقابا فى الدنيا والآخرة " **بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ** " من مخالفات وعمل السيئات والخطايا والموبقات , نسأل الله تعالى أن يحفظنا من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا أنه هو الحفيظ العليم .

قوله تعالى " **وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ** " أى ولا تقربوا أيها المسلمون طعام ذبيح لم يذكر ذابحه اسم الله عليه حال ذبحه , فحكمه التحريم كالميتة التى ماتت قبل ذبحها " **وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ** " أى وأن الآكل مما لم يذكر اسم الله عليه خروج من دين الاسلام , لأن فيه خروج على أوامر الله تعالى " **وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ** " يجوز أن تأول بمعنى أن شياطين الجن يوسوسون وحيا الى أوليائهم من الانس , ويزينون لهم جدالكم فى تحريم الميتة والذبيحة التى لم يذكر اسم الله عليها , ويبغون من الجدال أن تعدلوا عن تحريمها . كما يجوز أن يكون معنى الآية أن شياطين الانس من الفرس وأهل الكتاب من اليهود والنصارى كانوا يمدون الكفار من قريش بحجج باطلة واهية , مثل قول بعضهم أن الميتة ذبيحة الله تعالى فكيف تتركون الأكل منها وتأكلون من ذبح أيديكم , وقول البعض الآخر اذا سلمنا لكم تحريمكم الميتة لما فيها من كراهية , فما هو سبب تحريمكم الأكل من الذبيحة التى لم يذكر اسم الله عليها عند ذبحها , مع وضوح صلاحيتها للأكل ولا كراهية فيها .

قوله تعالى " **وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** " أى وأن خدعكم باطل أقوالهم ووافقتم على تحليل ما حرم الله عليكم تكونوا مثلهم فى الشرك والاثم والعدوان , نعوذ بالله تعالى من أن نشرك به شيئا .

ولا يفوتنا أن نذكر فى ختام هذا التأويل اشارة الآيات الى تأثير المعنويات الباطنة فى الماديات الظاهرة , ونشرح مدى الصلة بين طعام الأشباح وطهارة القلوب والأرواح , ولما جعل الله الايمان به طهارة , والشرك به نجاسة , وقرن بين الأكل مما ذكر اسم الله عليه وبين الايمان بآياته سبحانه , هذا لأن الله الذى خلق جميع الشئون المعنوية , وكافة الأشياء المادية , يعلم مدىما بين القوتين من صلة لا تنفك , ورباط لا ينفصل , لذلك وصف الأكل من لح الذبيح الذى لم يذكر اسم الله عليه بأنه فسق , مع أن الفسق شأن معنوى , واللحم شىء مادى , وقد كشف العلم الحديث فى عصرنا , عن مدى تأثير اللطائف النفسية الباطنة , فى معالم الاجسام البشرية الظاهرة ولهذا أمر الله

المؤمنين به أن يتركوا ظاهر الاثم وباطنه للعلاقة القائمة بينهما بحيث اذا ذكر المؤمن اسم الله على الذبيحة طهر باطنها ,وبالتالى طهر لحمها , وصار له تأثير بالطهر على آكله , أما اذا ذبحها مشرك فقد نجسها بمعانى نجاسة شركه فيتسرب الى قلوب واجسام آكليها , هذا سر قول الله تعالى " **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ** "[1] نسال الله تعالى أن يطهر لنا طعامنا حتى تطهر بذكره قلوبنا , ونكون من الذين قال الله فيهم " **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** "([1]).

قوله تعالى " **أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُون** "ۘ **(122) .**

بعد ان أوضح الله سبحانه لعباده المؤمنين به وبرسله ما يأكلونه مما أحله لهم , وما يتركونه مما حرمه عليهم – ثم المح جل جلاله الى ما خفى عنهم من أسباب التحليل والتحريم , و أعقب ذلك بتحذيرهم من طاعة الشياطين , أو الاغترار بوسوسة الضالين المجادلين , ونهاهم عن اقتراف الاثم والمحرمات , ناسب أن يبين فى هذه الآية كنه الموات وحقيقة الحياة فقال تعالى " **أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ** " بمعنى أو من كان ميتا أى يحى الحياة التى لا تدرك من شأنها شيئا , فأحييناه حياة أيمانية يدرك بها حقيقة الوجود , ويفهم بها رسالة كل موجود " **وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**" أى وأعطيناه نورا من لدنا يبدد ظلام الباطل ويريه الحقيقة فى أعمال الناس " **كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** " أى كمن ظل فى جهالة حظوظه , وقيد مصالحه الفانية . لا يستطيع الخروج منها الى حقيقة الحياة الباقية , التى هى الغاية المبتغاة من الوجود فى الدنيا .

قوله تعالى " **كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُون** " أى كما حببنا الى أهل الهداية أيمانهم وزيناه فى قلوبهم , كذلك زين لأهل الغواية سوء أعمالهم , وسيظل التساءل الذى يبين الفرق بينهم قائم دائم فى قوله تعالى " **أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ** " [1] بمعنى أفمن رزقه الله نورا فى قلبه فأمن وشكر , كمن ظل فى ظلمات جهله فاشرك وكفر , نسأل الله تعالى أن يرزقنا نعمة الحمد والشكر , ويحفظنا من مصيبة الجحود والكفر , أنه نعم القريب المجيب لمن دعاه .

وفى هذه الآية اشارة ذوقية تبين لكل انسان حقيقة الكفر والايمان , والصلة بينهما وبين الموت والحياة بمعنى أن العجز عن الكسب موت , والقدرة عليه حياة , وفقد العقل موت , والعقل هو الحياة , ووزن الأمور بميزان الظلم موت , ووزنها بميزان العدل حياة , والجهل بالله هو عين الموت , والعلم به سبحانه هو عين الحياة , ورؤيا النعم بغير رؤيا المنعم موت , وشهود اسم المنعم فيما أنعم حياة . وجحود النعم وعدم شكرها موت , وحمدها وشكر من جرت على يديه حياة . وهكذا الى آخر الأمثال التى تبين أن الشرك والكفر بالله موت , وتوحيد ه والايمان به حياة . تسأل الله تعالى أن يمنحنا نورا من لدنه نحيا به حياة طيبة فى الدنيا والآخرة أنه سبحانه مجيب الدعاء .

قوله تعالى " **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** "(**123) .**

بعد أن ضرب الله فى الآية السابقة مثلا , يقرب به الى عقولنا أوصاف فريق الايمان , الذى أحيا الله مواته بنور الاسلام والعلم والحكمة والحلم , من أوصاف فريق الكفر , الذى زين له ما

---

[1] سورة التوبة آية : 28 .

([1]) سورة الاحزاب آية : 33 .

[1] سورة محمد آية : 14 .

يحيط به من ظلمات الشرك والجهل والحماقة وظل على مواته ولم يخرج منه شرع يوضح لنا فى هذه الآية أن كل فريق له رؤساءه وقادته , وزعماءه وكبراءه , فلا يخل منهم زمان ولا مكان فقال سبحانه " **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا** " أى وكما جعلنا جهلاء مكة وفساقها , وأهل العناد والفساد فيها هم أمراؤها ورؤساؤها وكبراؤها , كذلك كل قرية من قرى الأرض أو بلدانها أو مدنها أو دولها لا تخرج عن هذا المثل , فأوجدنا فى كل قوم رؤساء مجرمين , وكبراء فاسقين " **لِيَمْكُرُواْ فِيهَا** " أى ليحتالوا على الناس فيستخدموهم فى مصالحهم الخاصة ويجعلوا منهم أعوانا لهم على أشباع شهوات أبدائهم وأهواء نفوسهم , فاذا ظهر داع يدع الى توحيد الله والايمان به , عادوه وحاربوه حرصا منهم على دوام استعبادهم للناس من أهل القرية أو الدولة أو العالم كله أن أستطاعوا " **وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** " أى وما يحتالون الا على أنفسهم , لأن شديد حرصهم على ترسيخ نظامهم , الذى ينعمون بمقتضاه فى حاضرهم , سيضرهم فى مستقبلهم , ويكون وبالا عليهم وشرا لهم , عندما تضعف شوكتهم وتذهب قوتهم , وتزول دولتهم , وينكشف باطلهم , ويظهر خداعهم فلن يجدوا فى هذه الحالة من يرحمهم , أو يحفظ عليهم ماء وجوههم ,بل سيكيلون لهم أضعاف ما كانوا يكيلون , ويفعلون بهم أشد مما كانوا يفعلون , وحدوث هذا التغيير ليس ببعيد لو كان يعلمون ,أو بأحداث الزمان يتعظون , ولكنهم قوم موات غافلون , يخدعهم مكرهم بالناس وما يشعرون , أن ما هم فيه اليوم سيكون لغيرهم غدا ولله فى خلقه شئون .

قوله تعالى " **وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ" (124 .)**

بعد أن بين الله فى الآية السابقة كيف أن أكابر مجرمى القرى والمدن والدول الذين يمكرون بالناس ليستعبدوهم , أو يستخدموهم فى مصالحهم الشخصية , أنما هم فى الحقيقة يمكرون بأنفسهم , وذلك لجهلهم وغفلتهم عن تصريف الأيام فى المستقبل القريب أو البعيد , ناسب أن يبين سبحانه فى هذه الآية كيفية تعاملهم مع أهل الدعوة الذين يدعوهم الى طرق التقوى , فقال تعالى " **وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ** " أى اذا اظهر دعاة الهداية الى سبيل الرشاد , مبشرين أهل الصلاح ومنذرين أهل الفساد , وجاؤهم بكل آية تيبت حتمية الثواب والعقاب " **قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ**" وهذه الآية تحتمل تأويلين عن قصد أكابر المجرمين من قولهم هذا فيجوز أن يكون قصدهم أنهم لن يؤمنوا حتى ينزل الله عليهم مثل ما أنزل على رسله من توراة , وأنجيل , وقرآن , كما يجوز أن يكون قصدهم عدم الايمان حتى يأتيهم الدعاة بمعجزات وخوارق للعادات كالتى جاءت بها الرسل السابقون , وسواء كان قصدهم هذا أم ذاك فقد رد الله عليهم بقوله تعالى " **اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** " أى أنه سبحانه أعلم من سواه بمن هو أحق من غيره بحمل رسالته الى خلقه , فيرسل من يشاء بما يشاء لمن يشاء ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون وانما " **سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ**" أى سيحيق بالذين يحاربون الصالحين من دعاة الخلق الى الحق , القائمين على الرسالة بكل عزم وصدق , نوع من العقاب " **وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ**" أى ذل وضيم فى الدنيا , ونار الحريق فى جهنم يوم الدين , وذلك بما كانوا يتحايلون على خداع الناس بكل مكر الانسان , الذى فاق أساليب الشيطان , فى كثير من الاحيان ..

وفى هاتين الآيتين اشارتين : أولاهما تثير موضوع الامامة بالنسبة لأهل التقوى والرشاد , ولأهل الكفر والفساد , فقد جعل الله تعالى بعض عباده الصالحين أئمة هادين مهديين سر قوله

سبحانه " **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** " [1] وقوله جل جلاله "**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ** "[1] وكلا الفريقين , سواء المتقين وأئمتهم من جعل الله , وهذا يثبت أن لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

والاشارة الثانية تثير مسألة الشعور والاحساس , يمعنى العلم والادراك ,لما به النجاة وما به الهلاك , فنرى أئمة الايمان يسارعون الى الخيرات بدعوة الخلق الى الحق عكس ما نراه من أئمة الكفر , فهم يبذلون جهدهم من الاحتيال بكل مكر ودهاء , ليوقعوا العامة من البسطاء وغيرهم ن العملاء تحت سيطرتهم لكى يستخدموهم فى مصالحهم الدنيوية , وهم لايشعرون بأن مكرهم هذا فيه شقائهم الأبدى وخسرانهم الدنيوى والأخروى ,وقد وهب الله تعالى تعمة الشعور لائمة المتقين , وحرم منها أئمة الكافرين لكى يسير كل فريق فى سبيل القدر المقدر عليه , ويصل فى نهاية المطاف الى المكان الذى يستحقه بنار على عمله وسعيه وجده , فريق فى الجنة , وفريق فى النار , وهذا من عجائب الانسانية وغرائبها , التى جعلها الله مؤهلة للقيام بها .

ولا يفوتنا فى هذا المجال أن نذكر طائفة تعد من أمكر الماكرين , الذين يستحقون لعنة الله والناس أجمعين , وهى طائفة المنافقين , الذين توعدهم الله بالخزى و العذاب المهين ,لكونهم اتخذوا سمة الصالحين , وجعلوا التظاهر بالتدين سبيلا الى ما يريدون , نسأل الله تعالى أن يحفظ أمة سيد المرسلين , من شر هؤلاء المخادعين أنه هو الحفيظ العليم .

قوله تعالى " **فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ** " **(125) .**

بعد أن المح الله تعالى فى الآيات السابقة الى ما فى حلقه من طوائف مختلفة ومتفاوتة , مختلفة اختلاف ظاهرا بين الكفر والايمان , ومتفاوتة تفاوتا باطنا فى درجات ما وصلت اليه كل طائفة , من غلو فى الافراط أو التفريط , ثم صرح سبحانه بأنه هو الذى أحيا موات المؤمنين بنور من عنده فاهتدوا , وترك الكافرين فى ظلمات جهلهم فضلوا واشركوا , وأنه سبحانه جعل فى كل قوم أئمة يدعونهم الى ما قدر لهم , ناسب أن يذكر فى هذه الآية ما يؤكد مضمون ما سبق فقال تعالى " **فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ** " أى أن علامة أهل الرسالة الذين جعلهم الله أئمة لمتقين أن يشرح صدورهم الى القيام بأركان الدين , بهمة عالية وعزيمة صادقة وصبر على المكاره لايكل ولا يلين , فيدعون الى الله بكل أقوالهم , ويؤيدون دعوتهم بجميع أعمالهم , حتى لقد يؤثرون فى الناس بنور أحوالهم , الظاهرة فى شديد زهدهم , وقوة تحملهم لأنواع الأذى من الذين يتعرضون لدعوتهم , نسأل الله أن يجعلنا منهم .

قوله تعالى " **يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً** " أى ومن يرد الله أن يجعلهم أئمة للكفر والضلال , ومن أكبر زعماء الجهال , يلبسهم صفة المكر والدهاء , والظهور فى الناس بمظهر العلماء , مع الميل الى ارتكاب المعاصى والذنوب , وقدرتهم على جعل كل عيب شىء محبوب , وتأويل كل الشرور على أنها خيرات , فيتباهون بالأقبال على المحرمات , ويغضبون بسرعة عند أقل جدال , وتضيق صدورهم من أبسط الاقوال , والفرد منهم فى حرج شديد " **كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء**"اذا دعاه داع من الخلق وأقام عليه الحجة بالحق , فتراه فى تعب وعناء , كمن ابتلى بكل

---

[1] سورة السجدة :24 .

[1] سورة القصص :41 .

أنواع البلاء " **كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ** " أى يجعل القذر العقاب والغضب على الذين يتكبرون على الايمان ويعرضون عن المؤمنين ويحاربون الدعاة من الصالحين ,

وطى هذه الآية اشارة الى أعظم نعم الله تعالى على من يحبه من عباده , وهى نعمة البسط التى منها شرح الصدر , فمتى شرح الله صدر أنسان منحه البركة فى الارزاق مهما قلت , والوسعة فى الاخلاق مهما حاربه أكابر المجرمين , وتحمل الشدائد مهما أصابه من المصائب والبلايا , فلا يحزنه ما يحزن غيره , ولايخاف مما يخاف منه الناس ولا يفزع من شىء على الاطلاق , كما أن فيها أيضا اشارة الى أعظم نقم الله تعالى على أهل غضبه , وهى نقمة القبض التى منها ضيق الصدر , وهو أشد بلية وأعظم محنة تصيب الانسان , لأنه مهما كان يعيش فى نعيم الدنيا ورفاهيتها , غارق فى كثرة الأموال وعزتها , يتمتع بسلطان المناصب وقوتها , له العديد من الأولاد والكثير من النساء , ويملك رقاب الرجال , وضاق صدره رغم كل هذا أنقلب حاله وصار فسيح السموات والارض بالنسبة له سجن أضيق من ثم الخياط , وضيق الصدر هو العذاب والعقاب والعاجل الذى يجعله الله لأهل الكفر والظلم والفساد لدرجة أن ضيق الصدر قد يدفع الانسان الى التخلص من الحياة رغم ما يملك من وسائلها من صحة وجاه , وقوة وسلطان , وأهل وأعوان .. نعوذ بالله تعالى من هذه النقمة الكبرى , والمحنة العظمى .

قوله تعالى " **وَهَـذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**" **(126) .**

قوله تعالى " **لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** " **(127) .**

بعد أن ذكر الله تعالى فى الآيات السابقة أن العمل بما شرع الله ورسوله , والقيام بأركان الاسلام كاملة غير منقوصة , مع الاقتصاد فى الشهوات والملذات , والتوسط فى مطالب النفس , والبعد عن التحايل والخداع والمكر السىء , كل هذا يؤدى الى شرح الصدر والرضى عن النفس . أما الكفر بالله ورسله , ومخالفة أوامره , والبعد عن القيام بأركان دينه , مع التكالب على متاع الدنيا والتكاثر فيها , ومزاحمة الناس فى أرزاقهم , ومحاولة السيطرة عليهم , وسلب ما فى أيديهم بالاحتيال والخداع والتضليل , يؤدى الى ضيق الصدر وتلوث النفس بالرجس واستحقاق العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة , ناسب أن يذكر لناس أن ما وقع لأهل الايمان من ثواب , وما أصاب أهل الكفر من عقاب هو العدل الالهى , الذى لاظلم فيه فقال تعالى " **وَهَـذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً** " أى وهذا هو الطريق الحق الذى لاظلم فيه , وقد سنه الله لعباده , من آمن وعمل صالحا فلنفسه وله حسن الثواب , ومن كفر فعليه كفره وله عند ربه أشد عقاب " **قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ**" أى قد وضحنا معالم الطريق فى علامات الأكوان , وأحداث كل زمان , وشرحناه بالتفصيل على السنة الرسل السابقين , وبيناه فى آيات القرآن المبين , وعرفناه للعارفين بالله رب العالمين , حتى صار ظاهرا لقوم يتفكرون فى أفاق الكون فيتذكرون ما كان وما يكون وبه يتعظون ..

قوله تعالى " **لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ** "أى أن الذين يتذكرون أحداث الزمان , فيرون سنة الله ظاهرة فى الأكوان , فيتعظون بهذه الذكرى , وينتفعون بما فيها من عبرة , لهم عند ربهم الأمن والسلام , فى دار الفضل والاكرام " **رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** " أى هو اقريب منهم برحمته , والذى يشملهم بتوفيقه ومعونته , فيعملون بما يرضاه فيثيبهم بما عملوا بمحض فضله .

وفى هذه الآية اشارة باطنة , الى ما فى الدنيا من مثنوية ظاهرة , واختلاط معالم أحوالهم وتزاوج أضدادها , يخدع الكثيرين من أهلها وطالب متعها , الى أن تأتى الآخرة فى حتمية لاشك فيها , فتنفصل الاضداد عن بعضها , فيكون اليسر فى جانب والعسر فى جانب آخر , فأهل الايمان فى دار الثواب , وأهل الكفر فى دار العقاب , هؤلاء يتمتعون بالنعيم المقيم الذى لايشوبه شائبة من

كدر أو حزن أو ألم , وأولئك يذوقون العذاب الأليم الخالى من أدنى بارقة من رحمة أو أقل صفاء , أو شىء من سرور , أو نذر يسير من أمل , أسأل الله لى ولأخوانى المسلمين أن يعاملنا فى الدنيا والآخرة بمحض فضله , وان يحفظنا جميعا من الدخول فى دائرة عدله , أنه قريب مجيب .

قوله تعالى " **وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** " **(128) .**

مما لاريب فيه أن نصوص الآيات السابقة , وما وفقنا الله الى ذكره فى تفسيرها , قد يوضح لنا تأويل هذه الآية اللاحقة , فنفهم معانيها ونلمس مراميها , فنراها بعين اليقين , بعد أن علمناها علم يقين , وقبل أن نحياها حق يقين , فقوله تعالى " **وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعاً** " أى يوم يحشر الله اليه جميع المخلوقات فى يوم لاريب فيه وما نرى مثيله فى حياتنا ممثلا فى اجتماعتنا العامة , وتزاحمنا الشديد فى الأوقات المهمة , مثل تجمعنا فى مناسبات الاحتفال بالموالد والأعياد , وحضورنا حمل الموتى الى المقابر مما يذكرنا بيوم الميعاد , يوم ينادى فيه المنادى " **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ** " والاكتفاء بذكر الجن ينسحب أيضا على الأنس بدليل قوله تعالى " **قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ** " أى طلبتم كثيرا منهم واستطعتم غوايتهم , بما وسوستم لهم من زخرف القوال , وتزين السىء من الأعمال , حتى صرتكم جميعكم سواء فى الضلال , وجمعتم معا فى دار الخسران والوبال .

" **وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ** " أى تكلم أهل الضلالة من الناس الذين والوا شياطين الجن وأتبعوا خطواتهم , ولم يكتفوا بذلك بل تعاهدوا على نشر باطلهم , وتواصوا بطاعتهم طمعا فى الاستماع بما وعدوهم به , ثم اعترفوا وأقروا بهذا الاستمتاع بقولهم الذى أخبرنا به الله فى قوله تعالى " **رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ**" أى يا ربنا لقد استمتع بعض فساقنا ببعض أمثالنا من شياطين الأنس وقد ساعدنا على هذا الفسق وسوسة أولياءنا من الجن " **وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا** "أى والآن بعد أن بلغنا نهاية أعمارنا التى كتبت لنا , وعدنا اليك فى هذا اليوم المعلوم , الذى رأينا فيه صدق وعدك المحتوم , ورغم ما فى هذا القول من معانى الندامة والحسرة , والذل والمسكنة والتوبة , الا أن الله " **قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ** " أى كان جوابه على هذا الندم الذى فات أوانه , والذل الذى خلا منه زمانه , والحسرة التى مضى وقتها , والتوبة التى جاءت فى غير محلها , بالحكم عليهم بالثوى فى النار " **خَالِدِينَ فِيهَا** " أى ماكثين فيها أبدا " **إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ** " أى باستثناء ما شاء الله أن يخرجه بعد فترة حسب تفريطه فيما ارتكب من سيئات " **إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** " أى له فى كل ثواب أو عقاب أو عفو حكمة علية لا تبلغها المدراك الانسانية , ولا تفهمها العقول البشرية

قوله تعالى " **وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ** " **(129) .**

بعد أن علمنا من مضمون الآية السابقة أن الجن رغم خفائه , يؤثر فى الانس رغم ظهوره , وأن الأنس يؤثر بعضهم فى بعض , حسب تجانسهم فى الميول القلبية , و الرغبات النفسية , ومدى خضوعهم لشهواتهم الحسية , جاءت هذه الآية فأخبرنا الله فيها بهذا المعنى بقوله تعالى " **وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً** " أى ولهذا نولى شياطين الجن بعض الظالمين من الانس , كما نولى بعض الظالمين من الناس بعضهم بعضا " **بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ** " أى بما كانوا يتشابهون , واليه يميلون فيطليون , والى عمله يسارعون , فمن سنة الله فى خلقه , أن كل قوم متشابهون فى مطمع , يتولون بعضهم بعضا مثل الطيور على أشكالها تقع .

وتنطوى هذه الآية على اشارة ذوقية , لا يتذوقها سوى أهل النفوس الزكية , فيعرفون بها أن الملائكة الكرام , يتولون الصالحين من أهل الايمان , ويحفظونهم بأذن الله فى اليقظة والمنام , من

كيد شياطين الجن والأنس اللئام , ويلهمونهم بتدبر الآيات , والمسارعة الى فعل الخيرات , كما يستقبلونهم بكل ترحاب بعد الممات .

قوله تعالى " **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ** " **(130) .**

ان صيغة هذه الآية تفيد ارتباطها بالآيتين قبلها , فالنداء الالهى رغم عموميته الا أن المراد به مخصوصين , فقوله تعالى " **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ**" أى يا من استمتع بعضكم ببعض , وتولى الجن منكم الانس وصارت النار مثواكم بما كنتم تكسبون " **أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ** " أى من جنسكم , فالجن لهم رسل من الجن , والانس لهم رسل من الانس , وذلك فى كل زمان ومكان بدليل قوله تعالى " **يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي** " أى يحكون لكم أخبار رسلى , ويبلغونكم آياتى الدالة على توحيدى والايمان بى وبرسلى وكتبى وملائكتى , ويطالبونكم القيام بما أمرت والانتهاء عما نهيت " **وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا** " أى ويحذرونكم يوم لقائى هذا الذى ترونه , اذ " **قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً . يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً** " [1] وللانس أيضا " **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** " [2] اليس هذا حدث وكنتم عنه غافلون " **قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا** " أى اعترفوا بما حدث لهم جميعا وشهدوا على أنفسهم بأن رسل الله قد أبلغوهم رسالات ربهم وبذلك صاروا لاحجة لهم سوى اتهام بعضهم بعضا بأنهم كانوا غافلين " **وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**" أى فتنتهم جميعا جنا وانسا بزخرفها وزينتها وهم بهذا ندموا على ما بدر منهم " **وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِين** " بالله ورسله ومكذبين بيوم الدين .

قوله تعالى " **ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ** " (131) **.**

قوله تعالى " **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** " **(132) .**

بعد أن بين الله فى الآيات السابقة النتيجة المتوقعة لولاية الظالمين بعضهم بعضا يوم القيامة , وكيف سيندمون على ما عملوا ويشهدون على أنفسهم بالغفلة والكفر , وذلك بعد اعترافهم جميعا جنا وانسا بأنهم جاءتهم رسلهم وبلغوهم رسالة ربهم وأنذروهم يوم لقائه سبحانه , شرع فى هذه الآية يخرنا بأنه سبحانه لا يظلم أحدا ولا يهلك قرية قبل انذارها فقال تعالى " ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ " أى أن مقتضى عدله سبحانه أن لا يهلك أهل قرية ظلما وهم فى غفلة ساهون , بل يرسل اليهم الرسل ينذرهم ويحذرونهم عاقبة عصيانهم سر قوله تعالى " **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** " [1]وأنواع الرسل انما تكون حسب غفلة أهل القرى ومدى ظلمهم سر قوله تعالى " **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ**" أى ولكل انسان قسطه من الجزاء ثوابا كان أو عقابا حسب درجة عمله قليلا كان أو كثيرا , صغيرا كان أو كبيرا سرا كان أو علنا , خيرا كان أو شرا " **وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** "لأنه سبحانه معهم أين كانوا وكيف كانوا وهو الرقيب عليهم لايغفل عن عمل عملوه , ولا ظلم ارتكبوه , وهو أقرب اليهم من حبل الوريد ولا تأخذه سنة لانوم .

---

[1] سورة الجن :1 – 2 .

[2] سورة التوبة : 122.

[1] سورة الاسراء : 15 .

وفى هذه الآيات السابقات أشارة خفية , يفهم منها أهل السابقية أن الله تعالى يكلم الناس بواسطة رسله , أما " **وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** " [2] ومقتضى علوه أن لا تظهر ذاته العلية , ومقتضى حكمته أن تحيط اسماؤه وصفاته بكافة خلقه وان يرسل من يشاء الى من يشاء من عباده ليوقظ قلوبهم , وينبه عقولهم, ويحذرهم من عواقب ظلمهم , حتى تزول عنهم الغفلة , ويصلهم أمره ونهيه , فلا يكون لهم بعد ذلك عذر ولا حجة , نعوذ بالله تعالى من سابقة السوء ونسأله سابقة الحسنى أنه على كل شيء قدير وباجابة السؤال جدير .

قوله تعالى " **وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ** " (133) .

قوله تعالى " **إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ** " (134) .

بعد أن أخبرنا الله فيما سبق من آيات أنه يخاطب معاشر الجن والانس فى الآخرة مباشرة , ويذكرهم برسله الذين أرسلهم اليهم يحذرونهم من عاقبة أعمالهم فى الدنيا , وينذرونهم يوم لقائه , وأنه جل جلاله لايهلك قرية قبل أن يبعث فى أهلها رسولا , وعذابه يحل بكل فرد بقدر جرمه , وأنه سبحانه ليس بظلام للعبيد , ناسب أن يخبرنا بصفتين من صفاته فقال جل شأنه " **وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ** " أى اعلم أيها العبد أن ربك هو الغنى عن جميع خلقه غنا مطلقا بلا حدود أو قيود , ولو أجتمع جنهم وأنسهم على نفعه لاينفعوه , وكذلك لو أجمعوا على ضره فى شيء لايضره فى شيء ,وما خلقهم جميعا الا ليعبدوه , وهو ذو الرحمة الواسعة بلا بدايه تحددها ولانهاية تقيدها , فأداة التعريف فى الغنى والرحمة عند اللغويين تعنى ذلك واكثر ,

قوله تعالى " **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ**" بمعنى أنه لو أراد لكم الهلاك لذهب بكم اليه فورا , ويستخلف من بعد هلاككم ما يشاء من خلق , وليس هذا عليه بعزيز وأنما هو أمر سهل " **كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ** " أى كما أنشأكم من ظهور أبائكم الذين هم ذرية اجدادهم الأولين يستطيع أن يذهب ريحكم ويأتى بقوم آخرين , ولكنه سبحانه لم يشاء ذلك رحمة بكم , ورحمة بعباد له من ظهوركم لا تعلموهم ولكن الله يعلمهم .

قوله تعالى " **إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ** " أى أن ما توعدون به من وعد ووعيد لآت حتما مقضيا , وما أنتم بمعجزية فى تحقيق وعده ووعيده بشيء . لأنكم وكل ما سواه خلقه , وجميع خلقه لايملكون من أمر أنفسهم شيئا , فأين المهرب وأين المفر .

قوله تعالى " **قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** "(135) .

بعد أن ذكر الله لعباده فى الآيتين السابقتين , بعض الحقائق الواضحة , والتى يراها الناس بعيون رؤوسهم صباح مساء , بحيث لاتحتاج الى أقامة الأدلة على صحتها , جاء فى هذه الآية وأمر سبحانه رسوله ε بقوله " **قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ**" أى قل لقومك من أهل مكة , ولكل المعاصرين لك , وللناس اجمعين الى يوم الدين , أعملوا ما يحلو لكم , وما تظنون أنه فى صالحكم , ويرفع من قدركم ويعلى شأنكم فى الدنيا والآخرة , " **إِنِّي عَامِلٌ**" بما أمرنى الله به وبلغتكم أياه فأعرضتم عنه عنادا وكبرا , أو عدوانا وجهلا , " **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**" بعد حين من الزمن أينا أعلى مكانة , وأصلح حالا , وأحسن مالا , وترون بعيون رؤوسكم " **مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ**" أى تتحققون من منا له النصر فى الدنيا , والفلاح المبين فى الدار الآخرة نحن أم أنتم " **إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ**

---

[2] سورة الشورى :51 .

الظَّالِمُونَ " فقصص الأنبياء السابقين , واثار سكان هذه الأرض من الأولين , بل وعبر ما نراه من أحوال المعاصرين , كل ذلك فيه آيات بينات لكل من كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد , فيرى أن الفوز العظيم والفلاح الأكيد , من حق أهل العدل الصالحين , وبعيد عن أهل الفساد الظالمين المعتدين ..

وفى هذه الآية اشارة الى أمر قديم جديد , فيه حيرة كبيرة ولبس شديد , يصيب أهل العلم الذين أعتمدوا على العقل والمعقول , وتركوا البحث السليم فى حقيقة كل منقول , فمنهم من قال أن درجات أهل المقامات عند الله أزلية , تعطى بالفضل لأهل السابقية , وليس العمل الدنيوى علة العطاء الأخروى , واستدلوا على صحة رأيهم بأيات قرآنية كثيرة منها قول الله تعالى " **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** " [1] .

ومنهم من حكم بأن الدرجات والمقامات تنال بكثرة الأعمال المصحوبة بالجد والاجتهاد , وأستدلوا على صحة رأيهم بأيات قرآنية كثيرة منها قول الله تعالى " **وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى** " ([1]) وقوله تعالى " **وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**" ([2])وهكذا ينقسم العلماء والدعاة الى فريقين , فريق يؤيد العمل الانسانى , ويترك المزيد للفضل الالهى , والفريق الآخر يميل الى الفضل الالهى ويبخس قيمة العمل الانسانى , ولكل فريق أدلته وحججه من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية .

وأنا أرى ان الفضل والعمل صورة واحدة , ودليلى أن من تفضل الله عليه فى سابق علمه الازلى , بدرجة من الدرجات فى ارتقاء مقام من المقامات , وفقه سبحانه الى العمل بما يحبه ويرضاه , وأعانه على ما يعترض سبيله وتحمل كل ما يلقاه , ففضل الله أزلى سابق , وتوفيق الله لمن سبقت لهم الحسنى أمر لاحق , وعونه سبحانه للعبد فى عمله فضل رابط الازلية بالسرمدية استحقاقا للجزاء بالحسنى فى الأبدية , وبهذا يكون فضل الله وعل عبد الله صورة واحة لا تتجزء كما هو واضح جلى فى قوله تعالى " **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** "([3])ومعلوم أن كافة مخلوقات الله تعالى انما أوجدها سبحانه بمحض فضله ويؤيد هذا الرأى قول رسول الله ε " لن يدخل أحدكم الجنة بعمله , قالوا ولا أنت يارسول الله , قال ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمته " فقال بعضهم اذا لانعمل , فقال ε " أعملوا فكل ميسر لما خلق له " أسأل الله لى ولكم العون والتوفيق , لصالح الأعمال فى أقوم طريق ,أنه ذو الفضل العظيم .

قوله تعالى " **وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ** "(136) .

بعد أن أكد الله تعالى فى الآيات السابقة غناه المطلق عن كافة خلقه , واخبرهم أنه لولا رحمته بهم وحلمه عليهم ,لذهب بهم واستخلف من بعدهم ما يشاء , كما نوه بحقيقة الحقائق وهى أن وعده آت لا محال فلا مفر منه ولا مهرب , وأمر خلقه بالعمل فكل ميسر لما خلق له , وأعلمنا بأن حسنى الخاتمة وعقبى الدار والفلاح المبين من نصيب المؤمنين المصلحين , فى مقابل توكيده

---

[1] سورة الجمعة : 4 .
([1]) سورة طه :75 .
([2]) سورة الزخرف :72 .
([3]) سورة الصافات :96 .

سبحانه وتعالى باداة التوكيد أنه لايفلح الظالمون المفسدون , وفى هذه الآية شرع يبين لنا مدى جهل المشركين وغفلتهم الظاهرة فى أعمالهم التى لا تتفق مع أقل العقول فهما وادراكا , فقال جل جلاله " **وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً** " أى أن أهل الشرك بالله من كفار مكة وغيرهم , جعلوا لله – مما خلق من الزرع والانعام – نصيبا يقدمون منه الى الضيفان والفقراء والمحتاجين من المساكين , وجعلوا لأصنامهم التى يقدسونها نصيبا آخر يقدمونه الى سدنة الأصنام العاكفون على حراستها وخدمتها " **فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ**" أى زعموا فى تقسيمهم الباطل أن هذا النصيب لله – وهو ما يطعمون منه ضيوفهم وأهل الحاجة عامة – " **وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا**" أى وهذا النصيب لشركائنا القائمين على خدمة أصنامنا خاصة , وكانوا يحافظون على نصيب سدنة الاصنام محافظة تامة , فاذا سقط فى نصيب الله شىء من نصيب الاصنام التقوه , واذا زاد شىء فى نصيب الاصنام من نصيب الله تركوه , وقالوا ان الله غنى عن هذا , وهو معنى قوله تعالى .

" **فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ** " أى فكل زيادة فى نصيب شركائهم المخصص لسدنة الاصنام فلا يصل منه شىء الى أهل الحاجة من الفقراء والمساكين " **وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ**" أى وما كان من نصيب أهل الحاجة فهو يصل الى شركائهم ولا يرد منه شىء الى الله كما يزعمون " **سَاء مَا يَحْكُمُونَ** " أى وهذا حكم سىء زينه لهم الشيطان , وقبلته عقولهم الكاسدة وأراؤهم الفاسدة , وأيدهم فى ذلك الزعم والوهم سدنة آلهتهم الباطلة .

وطى هذه الآية اشارة تومى الى أن الانسان دينى بطبعه , اجتماعى بفطرته , جاهل بجبلته , فلما أراد سكان تلك المنطقة الجدب والارض القفر , أشباع طبيعتهم الدينية , هداهم الفكر الغريزى أن لهذا الوجود الها خالقا وربا قادرا , ولكى يتقربوا اليه ويعبدوه , بحثوا عنه بعيون أبصارهم الناظرة والتمسوه بكل حواسهم الظاهرة فلم يهتدوا اليه لما جلبوا عليه من جهل لطائفهم الباطنة . فاتخذوا لهم من الحجارة أصناما تقربهم الى الله زلفى , وبمضى الايام وكر السنين والاعوام , وحتمية الاختلاف والصراع بين الانام , تعددت الاصنام وصارت الهة تعبد من دون الله , وجعلت كل قبيلة لصنمها سدنة يخدمونه , وقرروا لهم نصيبها مما رزقهم الله , وجعلوه أهم من نصيب الله , وقد أخبرنا الله فى هذه الآية عن أحوالهم , وبين لنا كيفية تصرفاتهم فى قسمة النصيبين حسب زعمهم , نعوذ بالله تعالى من جهلهم , ونحمده سبحانه على أن هدانا اليه ولم يجعلنا مثلهم , وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

قوله تعالى"**وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**" (137) .

قوله تعالى " **وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ" (138)**

قوله تعالى " **وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ " (139)**

قوله تعالى " **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ " (140) .**

بعد أن ذكر الله تعالى فى الآية السابقة أحوال أهل الجهالة من المشركين عبدة الاصنام فى اجمال يشير الى بعض أحكامهم السيئة التى تمليها عليهم عقيدتهم الباطلة , شرع يفصل فى هذه الآيات الأربعة أحكامهم الأخرى التى زينها لهم ظلام خيالهم السقيم , وزخرف وهمهم العقيم , فى المزيد من جهالة أحكام التقسيم , فقال تعالى " **وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ**

شُرَكَآؤُهُمْ " أى وكما زين لهم جهلهم أحكام التقسيم للأنصبة بين الله والاصنام , كذلك زين الجهل لكثير منهم قتل أولادهم , واستحسن منهم هذا العمل شركاؤهم من سدنة الأصنام وحثوهم على تنفيذه ,فذبح البعض أبناءهم الذكور فى محراب الاصنام قربانا لها بغية نوال رضاها , ووأد البعض بناتهم خوف الفقر والعار والفاقة وذلك " **لِيُرْدُوهُمْ**" موارد التهلكة والضعف لكى سدنة الأصنام السيطرة عليهم والتحكم فيهم والاستيلاء على أموالهم وأرزاقهم , وهذه وحشية وضلالة , تمليها جهالة ما بعدها جهالة " **وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ** " أى وليخلط سدنة الاصنام على عبدتها أوامر الدين ويجعلوها مشوبة بالغموض لكى يستطيعوا أن يأمروهم بتنفيذ ما يحلو لهم ويرون فيه مصالحهم .

قوله تعالى " **وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ** " أى وحكموا بمزيد من التفرقة فيما رزقهم الله فقالوا هذه أنعام وزروع محجور عليها , فلا يقربها الا من وقفت عليهم حسب ما تعارفوا عليه من قوانين باطلة , وعادات فاسدة ظالمة , وجعلوها وقفا على جهات معلومة " **لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء** " أى لايأكل منها ولا ينتفع بها ولا يتصرف فى ثمرتها الا من نريد من خدم الاوثان وسدنتها الذين سكنوا الكعبة لا يبرحونها .

قوله تعالى " **بِزَعْمِهِمْ** " أى كما يزعمون أنه الحق من غير حجة ظاهرة ولا دليل عقلى ولا كتاب سماوى وأنما هو عين الباطل والضلال الذى أملته الحظوظ والأهواء لقوم من الجهلاء .

قوله تعالى " **وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا** " أى ونوق حرموا على أنفسهم ركوبها وحمل الاثقال عليها كالسائبة والحام , والسائبة هى كل ناقة يسيبونها لأصنامهم موقوفة عليهم , والحام هو الفحل من الأبل الذى يضرب عددا معلوما عندهم من النياق يترك بعدها فلا يركبه أحد ولا يحمل على ظهره شىء " **وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا** " أى وأنعام ينذرونها الى أحد أصنامهم فلا يذكرون اسم الله عليها عند ذبحها بل يذكرون اسم الاصنام ومن جهلهم أنهم ينسبون ذلك الى الله تعالى " **افْتِرَاء عَلَيْهِ** " سبحانه فيقولون اختلاقا وكذبا أن هذا حكم من أحكام الله ودين ورثناه " **سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ** " أى سيعاقبهم الله ربهم جزاء اختلاقهم الكذب على الله وبقدر ما كانوا يكذبون .

قوله تعالى " **وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا** " أى ومن كذبهم على الله تعالى قولهم ان ما فى بطون هذه السوائب والحبائر حلال للذكور من أبنائنا وحرام على النساء من ازواجنا فلا يحل للاناث عامة أن ينتفعن بلبنها أو أى شىء منها طالما كانت هذه الانعام حية " **وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء** " أى وأما الميتة من هذه الأنعام ومن خلفها فهى حلال للجميع وهم فيها شركاء " **سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ** " أى سيعاقبهم الله تعالى بعذاب شديد على هذه الأحكام الباطلة والأوصاف الذميمة التى وصفوا بها الحلال فحرموه ووصفوا الحرام بغير حق فحللوه , ولم يحكم الله بهذا كما يفترون عليه كذبا " **إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** " أى أنه سبحانه ذو حكمة علية فى أحكامه , وذو علم محيط بالنفع والضر فى تدبير شئونه , فلا يضع فى أحكامه شىء يضر عباده .

قوله تعالى " **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ** " أى قد باء بالخسران والبوار كل من أهلكوا أولادهم وأحلوا ذبحهم قرابين لأصنامهم " **سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ** " أى جهلا لا يزيله علم , لأن السفاهة نقص فى العقول المدركة , وعيب فى القوى التى تميز بين الضار والنافع تميزا صحيحا , فتخبطوا فى أحكامهم " **وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ** " أى وحرموا على أنفسهم ما أحله الله لهم ورزقهم به من طيبات ماكسبوا من اموال وزرع وصيد , وأهلكوا أولادهم " **افْتِرَاء عَلَى اللّهِ** " أى ادعاء عليه كذبا وأختلاقا بأن هذه أحكامه " **قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ** " أى قد تاهو عن طريق الحق والصواب

سفها من عند أنفسهم , وأنحرفوا الى طريق الضلال والخطاء جهلا بقدر ربهم , ولم يكن لهم من الهدى سهم ولا نصيب , فستحقوا العقاب , وليس لهم أى ثواب .

وفى طى هذه الآيات , عدة حقائق واشارات , نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر , أن قضايا التزين وخداع النفس , والشرك بالله تعالى , وقتل الآباء لأولادهم بغير حق , والخلط فى دين الله بما لم يأذن به الله , هى حقائق قائمة دائمة لا تفارق بنى الانسان فى أى زمان وأى مكان , لأن سيطرة الشيطان على ملكات خيال الانسان , تزين له زخرف الحظوظ والاهواء , وتوهمه بصدق كل اختلاق وافتراء , يجعل له سلطانا على البسطاء والسفهاء , فنرى بعض شياطين الجن والانس من كل ملة وجنس , يدعون أنهم علماء أولياء , أو مشايخ طرق أتقياء , أو أنهم أبناء الشيخ وأولى من غيرهم بالولاية , ولانهم مشمولين بالرعاية ملحوظين بعين العناية , ويبتدع كل واحد منهم لأتباعه طقوس دينية تتفق مع حظوظه وأهوائه , فيتوارثها الأبناء عن الآباء , ومع مرور الأيام , وكر السنين والاعوام , تنتشر البدع فى كل البقاع , ويكثر لها الانصار والأتباع , وكثرة الطرق الصوفية فى هذا الزمان , لأكبر دليل على ما نقول وخير بيان , يبين اختلاط الحابل بالنابل , والتباس الحق بالباطل , ومدى أرتفاع الحقود الخامل فوق المتسامح العاقل . نعوذ بالله تعالى من شر هذه الفتن ما ظهر منها وما بطن , ونسأله دوام الحفظ والسلامة , من كل شرك يخفى على الفطن العلامة .

فمن صريح التزين وخداع النفس الاعتقاد فى الخرافات والأوهام , والعمل بمقتضاها على أنها من صميم دين الاسلام , ففى ذلك نشر للدجل والشعوذة بين المسلمين , والتباس مناسك الدين بما ليس منه فى شىء .

ومن خفى الشرك بالله تلك النذور والأوقاف التى توقف على تعض أدعياء الطريق الأحياء , أو على بعض قبور وأضرحة الأولياء , الا أذا كانت نية الواقف صريحة على أنها لله , واعتقاده الجازم بأن دفع الشر وجلب الخير بيد الله وحده , وبشرط أن يكون ذلك واضحا لأبنائه وأهله وعشيرته ولكل من يعلم بوقفه ونذره , حتى لا يظن به أحد ظن الجاهلية فيتحمل الواقف وزره .

ومن قبيل شح النفس وقتل الأولاد خشية الفقر و الاملاق , استعمال المسلم تلك المخترعات التى تحول بين منيه ورحم زوجته , الا اذا كان بسبب شرعى واضح يحكم به طبيب مسلم ثقه .

وأخيرا يا أخا الايمان أحذر كل الحذر من أهل النفاق والضلال , الذين يسوحون فى البلاد مدعين أنهم يعملون على أصلاح الحال , ويطلبون منك أن تساعدهم ببذل بعض المال , فلا تعرض على كل من يدعوك الى الله ورسوله , واختبرهم اختبارا طويلا بميزان شريعة الاسلام ومناسكه , فمن وجدته يقوم بها على خير وجه فاتبعه وعاونه , ومن وجدت منه أقل تهاون بغير سبب شرعى واضح فابعد عنه واتركه , هذا وقد سبق لنا الحديث فى هذه الأمور , الا انها مزيد تذكرة لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد , حفظنا الله تعالى من أهل التضليل , ووفقنا للسير فى أقوم سبيل أنه نعم الموفق والمعين .

قوله تعالى " **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** "(141) .

قوله تعالى "**وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** " (142) .

بعد أن ذكر الله تعالى فى الآيات السابقة بعض أفعال أهل الجاهلية كقتلهم لأولادهم خشية الانفاق والفقر , ووأد بناتهم خوف السبى والعار , واتخاذهم مناسك دينهم عن طريق اللبس والخلط بين تقاليد موروثة وأكاذيب مدسوسة , فكثرت أدعاءآتهم الباطلة حتى ضلوا عن طريق الهداية , وساروا فى طريق الغواية , ولهذا شرع سبحانه يبين فى هذه الآيات , بعض أدلة وحدانيته الظاهرة فيما أوجده من أشجار وزروع ونبات ,فقال جل جلاله " **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ** " والجنات جمع جنة وتطلق على كل بستان سواء كان فيه نخيل وأشجار عاليات , أو زرع قصير الساق أو النبات .

وقوله تعالى " **مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ** " أى ذات نخل وشجر يعرشها بأفرعه واغصانه , أو معروشة بعريش من الخشب لحمل كروم العنب وأمثاله , أوغير معروشة لزرعها بنبات قصير الساق يمثل الفرش لا العرش , وما على أولى الألباب من الناس سوى النظر الى هذه الجنات نظرة عبرة ,حتى يروا بعين الفكر وحدانية الله ظاهرة وواضحة , فهذه الجنات أشياء لا يمكنهم نسب نشأتها الى ما يعبدون من آلهة باطلة .

قوله تعالى " **وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ** " أى أن مجرد نظرة عابرة الى ثمر النخل والزرع نراه متنوعا فى حجمه ولونه وطعمه ورائحته وهيئته , فكل ثمر ميزة عن غيره , رغم أنه من نفس نوعه , وهذا اكبر دليل على وحدانية الخالق وعظيم قدرته , وحجة قاصمة لظهور المنكرين والملحدين وعبدة الأوثان المشركين .

قوله تعالى " **وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ** " أى كذلكنرى أصناف الزيتون و الرمان قد اختلفت أنواع ثمرها سواء تشابهت أشجارها أو كانت غير متشابهة , أى ان التشابه أو عدم التشابه فى أصناف الشجر , لايمنع التعدد فى أنواع وخصائص كل ثمر " كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ "هذا أمر من الله تعالى الى عباده أن يأكلوا جميعا أو أشتاتا من ثمر الشجر أذا طاب وأستوى على عوده " **وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**" يجوز أن يكون معناه وأشكروا الله على نعمه عند الأكل منه , ومن الجائز أن يكون المعنى وادفعوا أجر الأجير عند الحصاد وليس بعده , كما يجوز أيصا أن يكون معناه ةأدوا زكاته يوم قطفه لمستحقيه من الفقراء والمحتاجين من الضعفاء والمساكين , وعندى أن المعنى الأخير هو القرب الى تأويله بدليل قول الله تعالى " **وَلاَ تُسْرِفُواْ** " أذ يقال أنها نزلت فى ثابت ابن شماس برواية ابن جرير أنه قال أعطى ثابت كل ثمر بستانه زكاة ولم يترك منه شيء لأولاده فأنزل الله قوله تعالى " **وَلاَ تُسْرِفُواْ** " أى توسطوا فى العطاء كما تتوسطوا فى الأكل فالله تعالى قد جعلكم أمة توسطوا وأنزل عليكم دينا وسطا , ونهاكم عن الاسراف كما تهاكم عن البخل والتقتير , فكونوا وسطاء فى كل شؤونكم يحبكم ربكم " **إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** " لأن الاسراف توأم للتبذير, والبخل وأم لتقتير , وكلاهما صفتان مذمومتان لايرضاهما الله دينا لعباده , وقد وضع بينهما حدا وسطا فمن تجاوزه فقد ظلم نفسه وأغضب ربه .

قوله تعالى " **وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً** " أى أن الله تعالى أنشأ لكم غير الجنات والنخل والزرع من الانعام والابل وغيرهم ما تأكلون من لحومها , وتحملون أثقالكم على ظهورها " **وَفَرْشا** " أى وتتخذون من أصوافها وأوبارها وجلودها فرشا تفترشونه فى بيوتكم وحال أسفاركم " **كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ** " اى كلوا مما أحل الله لكم أكله لا تحرموا على أنفسكم أنعاما أحلها الله لكم وجعلها رزقا طيبا فكلوا منه كما أمركم ربكم " **وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ** " أى ولا تطيعوا وساوس الشيطان حين يوسوس فى صدوركم ويزين الضلال والباطل والشرك بكل أنواعه فى نفوسكم " **إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** " أى أن الشيطان سواء كان جنا يوسوس فى صدوركم أو أنسا يهمس فى أذانكم فهو عدو مبين بين العداوة يبغى لكم الهلاك فى الدنيا والخسران فى الآخرة .

قوله تعالى " **ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**" (143) .

قوله تعالى " **وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**" (144) .

بعد أن ذكر الله فى الايتين السابقتين , بعض الأدلة المادية التى تدل على وحدانيته سبحانه , بوصفه أنه وحده الذى أنشأ من العدم بساتين معروشات باغصان الشجار وفروعها , وحقول غير معروشات لأن مزروعاتها قصيرة الساق , واشار سبحانه الى واسع قدرته الظاهرة فى تعدد أنواع الثمر وأختلاف خصائصه مع التفاوت الملحوظ فى طعم كل ثمرة ومذاقها سواء تشابه شجرها أم لم يتشابه , وابرز رحمته بعباده فأمرهم بالأكل من كل الثمرات عند نضجها مع أداء حقها والتصدق منها فى حدود الشرع وبغير أسراف لأن الله لايحب المسرفين , وأخبرهم أنه سبحانه خلق انعاما كثيرة وسخرها لهم تحمل أثقالهم , وفيها منافع وفرشا بعد ذبحها و الأكل من لحومها , ونهاهم , فكلاهما أعداء لهم , من أطاع عدوه فقد خسر خسرانا مبينا شرع سبحانه يزيدنا فى هاتين الآيتين بيانا وأيضاحا لما خلق لعباده فقال تعالى " **ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ** " أى هذه ثمانية انواع من الحيوانات

من كل نوع ذكر وأنثى , قد حرموا واحالوا فيهم أهل الجاهلية حسب حظوظهم وأهوائهم , وبغير علم يبين سبب التحريم , وليس عندهم دليل ولا برهان على ما يقولون , سوى أنهم وجدوا أباءهم هاكذا يفعلون .

قوله تعالى " **مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ** " أى ذكر وأنثى من الفصلتين " **قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ** " أمر من الله لحبيبه ومصطفاه بأن يسأل أهل الجاهلية من قومه , هل حرم الله عليهم الذكور أم حرم الاناث " **أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ** " أى أم حرم عليهم ماضمته أرحام الاناث واستقر فيها " **نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** " أى خبرونى عن كيفية التحريم وأذكروا لى دليله وبرهانه على ضوء العلم ونور العقل و أو أتونى بشىء من النقل يثبت أن الله حرمه عليكم أن كنتم صادقين فى ادعائكم .

قوله تعالى " **وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ** " نفس التساءل المنطوى على الاستنكار والتوبيخ لجهلهم وافترائهم على الله ومع ذكر الابل والبقر وهل حرمت عليهم ذكورها أم أناثها " **أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ** " أى أم حوم عليكم كل ما حوته أرحام الاناث من الابل والبقر " أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَـذَا " اى أم تراكم كنتم حاضرين شاهدين الله تعالى حين وصاكم بهذا الاحكام التي لاتتفق مع منطق ولا يؤيدها عقل , ولا أنزل الله بها من سلطان " **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ** " اى لايوجد فى هذا الوجود من هو أظلم ممن أخترع كذبا وأبتدع فرية على الله تعالى لكى يضل عباد الله عن الصراط المستقيم والشرع القويم وهو جهول ظلوم لاعلم عنده ولا دليل ويظن نفسه على الهدى " **إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** " أى أن الله تعالى هو الهادى الى الصراط المستقيم , ومن لم يهديه الله فلا هادى له , وقدر سبحانه أن لايهدى القوم الظالمين الذين اتصفت نفوسهم بالظلم الظاهر فى استكبارهم وتعاليهم على أهل الاصلاح والصلاح من معلميهم , وذلك لظلام الشرك الذى ران على قلوبهم فلم يروا أنوار الهداية فى اقوال وأعمال المرسلين اليهم من عند ربهم , نعوذ بالله من سابقة السوء ونسأله سبحانه سابقة الحسنى انه على كل شىء قدير وبجابة الدعاء جدير .

كما هى عادتنا نذكر فى ختام تأويل الآيتين بعض ما ينطويا عليه من اشارات , فالا شارة الأولى تومى الى أن صفتى الظلومية والجهولية بكل درجاهما من متعلقات الانسانية في كل عصر ومكان , وليستا وقفا على عصر بذاته , ولا أمة بعينها فالظلم والجهل كانا متفشيان فى دولتى الروم والفرس , ولم يكن العرب وحدهم هم الظالمون الجاهلون , بدليل سهولة انتصار العرب على الدولتين , رغم قلة عددهم وعددهم , وذلك لأن الاسلام ازال عن العرب ظلمهم وأنار الايمان بالله قلوبهم , فلما طغى الظلم فى أمة الاسلام , وظلم المسلمون أنفسهم , وضاعت معانى أخوة اليمان بينهم , فحارب بعضهم بعضا , وابتدعوا فى دينهم عادات وتقاليد ليست منه فى شىء , ولكنهم تعودوها وقدسوها حتى صارت هى الدين , فهزمهم اهل أوربا فى معركة الاندلس , ثم توالت هزائمهم بسبب مصابهم فى دينهم , حتى احتلت جميع ديارهم بجيوش اعدائهم , ولن تعود لهم مجدا أسلافهم الا بعد عودتهم الى العمل بحقيقة دينهم , يسأل الله تعالى أن يعجل لهم النصر على أنفسهم , حتى ينتصروا نصرا مبينا على أعدائهم أن قريب مجيب الدعاء .

والاشارة الثانية تومى الى مدلول الافتراء ومفهومه , فالافتراء هو الاختلاق لقوال وأفعال غير حقيقية , ولا يكون كذبا الا اذا نسبه مختلفة الى من هو منه براء , بغرض الاساءة الى الغير , سواء بقصد أو بدون قصد , وهذا هو منتهى الظلم , وبهذا المدلول لكلمة الافتراء نفهم معنى قوله تعالى " **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ** " اما من حاول الصلح

بين متخاصمين , فاختلق اقوال وأفعال نسبها الى أحدهما بغرض تحسين موقفه ليتم الصلح فلا يعتبر هذا الافتراء كذبا .

أما الاشارة الثالثة , فتتعلق بقضية العدات والتقاليد , التى جردت الدين من مفهومه المعلوم وأهدافه المطلوبة , وحولته الى مفهوم مضاد واهداف معاكسة له , مع أنها فى البداية قد تكون ابتدعت لغرض وأصلاح الحال نحسن نية , ومثال ذلك ظاهرفى كثير من وسائل معظم الطرق الصوفية , للاعلان عن نفسها كأنها اشياء مادية , وبذلك صارت أركان الاسلام تطبق فى الواقع تطبيقا سطحيا , فشهادة أن لاآله الا الله , وأن محمد رسول الله صارت أقوالا لا تتفق مع الأفعال فى كثير من الأحوال واقامة اللاة أصبحت صلاة عادة وليست صلاة عبادة . وايتاء الزكاة اختصرت الى صدقات المتصدقين على بعض المتسولين المحترفين , وصوم رمضان صار أسرافا فى تناول ما لذ أو طاب من الطعام , دون ممارسة القيام وفهم معانى الصيام , وركن الحج تهافت على أدائه الكثيرين من المقتدرين الذين لا يؤدون باقى اركان الدين , ولا يهمهم سوى التفاخر بذكر عدد مرات حجهم , وجميع المناسبات الدينية انقلبت الى مواسم أقتصادية لبعض الفئات التجارية , وبهذا غرقت الاكثرية فى احتفالات مادية لامعنوية وبالتالى لادينية .

قوله تعالى " **قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** "(145) .

بعد ان بين الله تعالى فى الآيات السابقة بعض أهل الجهالة , وما كانوا عليه من باطل وضلال , ناسب أن يبين فى المقابل طريق الحق والهداية فيما هو محرم من الانعام وما هو حلال , فقال تعالى " **قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ** " أى قل لقومك من معاصريك واللاحقين من بعدهم , انى لا أجد فى ما أوحى الى من أحكام الله تعالى التى أوحاها الى وانزلها فى كتابه العزيز وسنها لكم جميعا شيئا " **مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ** " من لحوم الانعام وغيرها " **إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ** " اى أن الله لم يحرم على الناس شيئا من اللحم الا لحم الحيوان الذى مات قبل أن يذبح ذبحا شرعيا , وحرم لحم الخنزير , ولحم الكلب ولحم فصيلته وما شابه ذلك من حيوانات قذرة يضر الانسان أن يأكلها , ويلحق ذلك فى التحريم كل ما بينته الشريعة والسنة من كل ذى ناب كالسباع ولضباع وكل ذى مخلب من الطير " **فَإِنَّهُ رِجْسٌ** " أى أنه قذر نجس يضر آكله من بنى الانسان " **فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ** " أى ومحرم عليكم كل ما ذبح فسقا أى خروجا على الدين وهو كل ذبيحة ذكر اسم صنم من الاصنام عليها عند ذبحها فتكون قد أهل بها لغير الله وذبحها مشرك .

" **فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ** " أى فمن أصابه أضطرار وتحقق الموت جوعا فله أن يأكل من تلك المحرمات بشرط ان لايزيد على الضرورة منعا لضرر بغير بغى ولا اعتداء على حدود الله " فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " أى فان الذى انشأك وصورك ورباك يغفر لك هذا الذنب الذى اقترفته مضطرا حتى لاتهلك , فهو رحيم بك ويقيك السوء والضرر .

وفى هذه الآية اشارة تومى الى حقيقة أثباتتها أربعة عشر قرنا من الزمان , ولن يغيرها شىء الى ما شاء الله تعالى , وهى أن محمد ين عبد الله , هو رسول الله وخاتم النبيين , وأن مانزل عليه من قرآن وحى من رب العالمين , بدليل أن ما حرمه ظهر ضرره , وأن ما أحله ظهر نفعه , فأوامره ونواهيه فى صالح الناس أجمعين , سواء فيما يخص الدنيا أو يخص الدين , فكل ما يطمئن القلوب ويزكى النفوس ويشرح الصدور ويحفظ الاجسام , أمر به وباشره , وكل ما يقلق القلوب ويدنس النفوس ويضيق الصدور ويضر الاجسام , نهى عنه ونجنبه , وذم التفريط والافراط فى كل

الأشياء والشؤون , ومدح التوسط فيها جميعا وقد أيده علم العلماء العاملون , فجزاه الله عنا خير الجزاء , وجعلنا جميعا من أتباعه الأمناء , انه رب قريب مجيب للدعاء .

قوله تعالى " **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** "(146) .

قوله تعالى " **فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** "(147)

بعد ان ذكر الله فى الآية السابقة أنواع اللحوم المحرمة على الناس عامة بسبب ضررها البين , ناسب أن يذكر عقبها ما كان محرما على اليهود خاصة عقابا لهم على بغيهم وسوء أعمالهم , فقال تعالى " **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ** " أى واذكر فى الكتاب ماكنا حرمناه على اليهود سابقا من كل حيوان له ظفر كالابل والنعام وما شابههما , " **وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا** " أى وما كنا حرمناه عليهم من شحم البقر والغنم وأمثالهما من ذوات الأظلاف " **إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا** " أى حرم الله عليهم دهون كل ذات ظلف باستثناء ما علق فى لحم الظهر " **أَوِ الْحَوَايَا** " التى هى الامعاء المعروفة بالمصارين " **أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ** " أى وأحل لهم أيضا كل دهن علق بالعظم وأختلط به من لحوم الحيوانات ذات الأظلاف التى حرم عليهم شحمها " **ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ** " أى أننا لم نحرم على اليهود لحوم كل ذى ظفر وشحوم كل ذى ظلف لننع ضرر موجود فيما حرمناه عليهم , ولكنه كان عقابا لهم بسبب ظلمهم وأعتدائهم على أنبيائهم وايذائهم لرسلهم والصالحين من أحبارهم .

" **وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** " فى ماأوحينا اليك وأخبرناك به . وأنك لصادق أيضا فما تخبرهم به لانك صادق تخبر عن صادق " **فَإِن كَذَّبُوكَ** " رغم يقينهم من صدقك " **فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ** " وبين لهم أن رحمة الله وسعت كل شىء لانه سبحانه متصف بالرحمة قبل أن يوصف بالانتقام , فيسع فى رحمته كل تائب عن الذنب راجع الى الحق – وهذا أسلوب حكيم فيه حلم ولطف فى التأليف والتعريف قبل التكليف والتعنيف – فأن رجعوا عن غيهم وآمنوا بربهم وسعتهم رحمته , وأن ظلوا على جدالهم وعنادهم كما هى عادتهم مع أنبيائهم ورسلهم فقل لهم " **وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ** " أى وبقدر حلمه ورافته وواسع رحمته بالتائبين من عباده , كذلك تكون شدة بأسه الذى لايستطيع أن يرده أحد عن القوم المجرمين من خلفه , الذين جعلوا الاجرام صفه من صفاتهم , وعلامة ظاهرة فيهم , فلا توبه لهم مهما قامت الحجة عليهم .

وفى هذا اشارة تومى الى أن رسول الله وخاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم هو رحمة الله الكبرى المشار اليها فى قوله سبحانه " **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِين** "[1] نسأل الله تعالى أن يدخلنا فى دائرة عفوه ومغفرته , وأن يشملنا بواسع رحمته أنه نعم العفو الرحيم .

قوله تعالى " **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ**" (148) .

بعد أن ذكر الله فى الآيتين السابقتين أنه حرم على اليهود بوجه خاص بعض أطايب الطعام التى يحبونها , وبين أن ذلك جزاء بغيهم وعدوانهم على كل نبى يرسل اليهم , ثم أمر رسوله وخاتم

---

[1] سورة الأنبياء آية : 107 .

أنبيائه فى حالة تكذيبهم له أن يخبرهم بمبلغ رحمته الواسعة التى تقبل كل من تاب الى الله وأناب , كما يخبرهم كذلك بأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين الذين يموتون وهم فاسقون , وناسب أن يذكر فى هذه الآية فريقا آخر من الناس المشركين , الذين يجادلون بالباطل ويتأولون الحق تأويل الشياطين , فقال جل جلاله " **سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ** " أى سيأتيك أهل الشرك ببعض الحجج الواهيه التي لا سند لها في الواقع سوى التضليل ولبس الحق بالباطل فيقولون بقول المنافقين " **لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا** " أى أن ما نحن عليه ليس الا مراد الله ومشيئته , ولو شاء الله لنا غيره لما أشركنا نحن ولا أباؤنا من قبلنا .

قوله تعالى " **وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ** " أى وكذلك سيقولون لولا أرادة الله تعالى ما وقع منا تحريم لشيء مما حرمنا , بمعنى أن ماهم عليه من شرك وتحريم هم وأباؤهم الأولون وأبناءهم التابعون تم بامر الله تعالى ومراده , ولهذا فهو راض عنهم تمام الرضى , وذلك قول حق يراد به باطل لأنه عين الزيغ والخلط بين الأرادة والتكليف , والمشيئة والأمر , وهذا ليس بجديد وأنما " **كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم** " من الأمم السابقة من أقوام الرسل السابقين " **حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا** " فانظروا فى الارض ماذا حدث لهم " **فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** " [1] .

قوله تعالى " **قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا** " أمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يسألهم هل عندكم من أخبار جاءتكم من ربكم تثبت أن الله راض عن شرككم وتحريمكم ما أحل الله لكم , وسيركم فى ظلام وضلال من سبقكم , رغم ما تروه من بأس الله الذى أصابهم , أن كان لديكم شيء من هذا فأطلعونا عليه , والا فانتم " **إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ** " فى عقيدتكم الفاسده وقولكم الباطل الذى أساسه وهم الخيال والتخمين حسب الخطوط والأهواء , فلا سند له من علم يؤيده , ولا دليل عليه من عقل يعقله , ولابرهان من نقل يبينه " **وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ** " أى تموهون فيما تقولون , وكاذبون فيما به تجادلون , نسأل الله أن يحفظنا من سيئات ما تعملون , وأن ينجينا بمحض فضله من عقاب ماتعتقدون , أنه حفيظ عليم ,وذو فضل عظيم .

قوله تعالى " **قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** "(149).

بعد أن أخبرنا الله فى الآية السابقة بما سيقول المشركون فى المستقبل القريب والبعيد , من أن الله تعالى راض عن شركهم وشرك أبائهم من قبلهم , وهو قول أمثالهم فى الماضى والحاضر , بل وفى كل زمان ومكان , وقد أحرجهم رسول الله بسؤالهم كما أمره الله , هل عندهم سند منقول , أودليل معقول , أو علم مقبول , فظهر أنهم أنما يظنون , وأن هم الا يخرصون ولذلك أمر الله رسوله أن يخبرهم بقوله " **قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ** " لأنه سبحانه هو وحده العليم بأمره ومشيئته , وليس لسواه أن يعلم سر قدره وحكمته " **فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** " ولكنه لم يشاء هداية الجميع , ولو شاء ذلك لفعل , وأنما قدر وأمر , واعطى ومنع , وهدى وأضل , فكل شيء منه واليه , وقد حمل الانسان أمانة الاختيار , بعد أن أعده الله لحملها والقيام بها , فجعل له السمع والبصر والفؤاد , واعطاه الارادة والمشيئه , ويسر له سبيل العلم بما وهبه من عقل وفهم وادراك وكلفه على قدر ما أستخلفه , فالله لايكلف نفسا الا بما فى وسعها , ولا يحملها الا بما فى استطاعتها , ولا يظلم ربك أحد , وله الحجة البالغة على خلقه , فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون , وهذه مشكلة المشكلات , التى وقع فيها

---

[1] سورة العنكبوت : 40 .

جميع أهل الجهالات , وتذوقها علماء الآيات , الذين كاشفهم الله بأسرار التجليات , وشهود تصريف الأسماء والصفات , وصدق الله فى قوله " **مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** " [1] .

وتشير هذه الآية الى قضية الأمر والقدر , التى كانت ولم تزل محلا لكل أنواع الجدل , فكثرت فيها الأقاويل , حتى اختلط الراشد بالتضليل , مما حير معظم العلماء الباحثين , فضل منهم رجالا كثيرين , لذلك نرى التجاوز عن ذكر أقوال كل فريق , ونحاول الوصول الى الحقيقة من أقرب طريق , فنترك كل عبارات التعجيز والألغاز , ونقول فى وضوح وايجاز , أنه من المعلوم بداهة وعقلا , ان الله تعالى خلق السموات والارض واوجد فيهما من الجان ومن ملائكة طائعون مقهورون على الطاعة ومن شياطين عصاة مغلوبون على المعصية , ثم سخر باقى المخلوقات جميعا وجعلها أما ساجدة وأما راكعة , وذلك تمهيدا لخلق الانسان وجعله خليفة فى الارض , فهيأه لهذه المهمة بالتجلى عليه بمعظم الأسماء والصفات , وصار أهلا لحمل الأمانة التى أبت السموات والارض والجبال عن حملها واشفقن منها .

والامانة هى حق الاختيار بين البدائل , فله مراده الخاص كما قال الله تعالى " **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً** " ([1]) وقوله سبحانه " **مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ**"([2]) وقوله لرسوله وخاتم أنبيائه " **وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ**" ([3]) وقوله له صلى الله عليه وسلم "وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ "([4]) وقوله جل خلاله "**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ** "([5]) .

ومن قبيل هذه الآيات فى القرآن الكثير الذى يثبت حق الاختيار لكل انسان حتى يعبد الله أهل محبته عن رضاء واختيار لا اكراه فيه فيجازيهم سبحانه فى الآخرة بالنعيم المقيم , ويبعد عن عباده أهل سخطه فيجازيهم بالخلود فى نار الجحيم , وحجتة قائمة على جميع عباده سواء منهم من جازاهم بمحض فضله أو جازاهم بقوانين عدله , فله الحجة التالغة التى لاتطاولها حجة بعد أن أعد سبحانه الانسان لحمل الأمانة , ووهبه من العقل والفهم والأدراك ما يستطيع ان يفرق بهم بين أمر الله الظاهر فى رسالات رسله , وقضائه وقدره الذى أخفاه عن جميع عباده , فقد أمر الله أبليس بالسجود لآدم وقدر عليه الا يسجد , ونهى سبحانه آدم عن الأكل من الشجرة وقدر عليه أن يأكل , وأمر جل شأنه وعلت حكمته خليله إبراهيم بذبح أبنه وقدر عليه الايذبح , وبناء عليه يجب على الانسان أن يطيع أمر خالقه وينفذه قدر استطاعته دون أن يبحث فيما سيكون عليه قضائه وقدره ولا يزال فى هذا المجال كثير من الأقوال ولكن نكتفى بهذا القدر وموعدنا فرصة أخرى أن شاء الله ربنا .

قوله تعالى " **قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَـذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**" (150) .

---

[1]سورة الحج : 74 .
(1) سورة الفرقان آية :62 .
(2) سورة آل عمران آية : 152 .
(3)سورة يونس آية : 99 .
(4) سورة الكهف آية : 29 .
(1)سورة آل عمران آية : 145 .

بعد أن أقام الله الحجة البالغة على المشركين الذين قالوا " **لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ**" وأظهر سبحانه مدى جهلهم بحقيقة التوحيد الذى هو من اعمال الأفئدة والقلوب , وأمرهم بالسمع والطاعة لشريعته التى هى من عمل الجوارح ومناط تكليف , ونهاهم عن البحث فى قضائه وقدره , و ترك محاولة الكشف عن مشيئته , فهذا فوق مجال التعريف , ناسب أن يؤكد لهم فى هذه الآية مدى عجزهم , وبطلان حججهم فقال سبحانه " **قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ** " أى قل للمشركين هيا أجمعوا ما عندكم وأحضروا معكم شهداءكم " **الَّذِينَ يَشْهَدُونَ** " معكم وقد أمدوكم بوسائل جدالكم فيما تدعون من " **أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَذَا** " الذى تحرمونه على أنفسكم من مأكل ومركب فى الغنم والمعز وألا بل والبقر وغيرهم " **فَإِن شَهِدُواْ** " أى فأن جاؤك بالشهود من أحبار اليهود , ورهبان النصارى وشهدوا فعلا " **فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ** " أى فلا تعترف بباطلهم وكذبهم على الله " **وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا** " أى ولا تطع أهل الحظوظ والاهواء الذين أنكروا عليك رسالتك , وكذبوا بأيات ربك التى أنزلها فى القرآن المبين لما أخفوه من أحكام التوراة والانجيل .

قوله تعالى " **وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ** " أى ولا تطع هؤلاء المكذبين الذين كفروا بيوم القيامة " **وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** " أى جعلوا المخلوق يعادل الخالق , فالعادل هو المشرك الذى يعدل بربه ويجعل له شريكا يعادله , وفى هذه الآية اربع صفات يعد الانسان مشركا بالله تعالى بقدر وجودها عنده , الاولى أن يحرم ما أحل الله , أو يحل ما حرمه , والثانية أن يكذب آيات الله الكونية أو القرآنية على أى وجه كان , والثالثة أنكاره لليوم الآخر , وتكذيبه لاخبار يوم القيامة , وعدم تصديقه لما ذكره الله عنها فى كتبه من توراة وانجيل وقرآن , والصفة الرابعة أن يعتقد ان لغير الله فعل أو نفع أو ضر الا على وجه المجاز فى دائرة الاسباب والمعاملات دون أن يصل الى عقيدة القلب شىء منه , نسأل الله تعالى السلامة من كل أنواع الشرك ظاهره وخافيه وأخفاه أنه رب قريب مجيب لمن دعاه .

قوله تعالى " **قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" (151)**

قوله تعالى " **وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ "(152)**

قوله تعالى " **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (153)**

بعد أن بين الله سبحانه فى الآيات السابقة ضلال أهل الشرك بالله , وسوء مقاصد أهل الحظوظ والأهواء , وفساد عقائدهم وسوء أعمالهم , أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بان ينادى على الناس أجمعين فى كل زمان ومكان الى يوم الدين , ويتلوا عليهم وصاياه العشرة التى تبين محارم الله تعالى ونواهيه فقال جل شأنه " **قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ** " أى يا أيها الناس جميعا هلموا وأستجيبوا لدعوتى لكى تسمعوا منى ما أنزله الله لأتلوه عليكم وقد بين فيه محارمه " **أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً** " أى توحدوه فلا تعددوه ,ولا تجعلوا له شريكا ولا ندا ولا صاحبة ولا ولدا , فلا تشركوا به شيئا سواء كان ماديا أو معنويا , بعضا أو كلا , فهو منزه عن الشبيه والنظير والند والمثيل ليس كمثله شىء .

قوله تعالى " **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً** " وهى الوصية الآلهية الثانية بعد النهى عن الشرك مباشرة , وفى ذلك اشارة تبين لنا أن حقوق الوالدين مقدمة على كافة الحقوق المذكورة بعدها , بل وفيه دليل على أن البار بوالديه يسهل عليه القيام بباقى الوصايا العشرة بعكس الولد العاق بوالديه .

قوله تعالى " **وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ** " أى أعملوا أنكم تجهلون ما سيأتى به الغد فلا تقتلوا أبناءكم خوف العار أو خشية الفقر والعيلة لأننا " **نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ** " وربما تكون كثرة الأولاد سببا فى كثرة الارزاق , لأن المتكفل بقوت جميع الخل هو الله الخلاق .

قوله تعالى " **وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** " وهذه هى الوصية الرابعة , وفيها نهانا خالقنا العليم بما فيه صالحنا , أن لانقرب من الفواحش , سواء ما ظهر منها علانية , أو بطن منها سرا وخفية , والفواحش جمع فاحشة , وهى تعنى كل صفة قبيحة مذمومة , مثل قول السوء فى الغيبة والنميمة , وسب الناس فى آبائهم وامهاتهم تكل شتيمة ,والتقول على كل شريفة عفيفة , و اقتراف البغاء بأى زانية , كما تشما أيضا تناول المفترات والمسكرات والمخدرات , ولهذا نهانا ربنا الرحيم بنا عن مجرد الاقتراب من قليله و صغيره فى السر والخفية , حتى لانفحش فى اقتراف كثيره وعظيمه علانية .

قوله تعالى " **وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ** " أى لا تسلبوا حياة النفس التى حرم الله قتلها , الا بوجه شرعى مثل الدفاع عن المال والنفس والوطن , ولا تعتدوا على نفس الاقصاصا بموجب ما شرع لكم ,كما أن هذه الوصية تشمل فى تحريمها أيضا قتل النفس انتحارا سواء كان الانتحار فورى يسلب الحياة فى الحال أو بطىء بواسطة تناول السموم القاتلة على زعم أنها كيوف محببة .

قوله تعالى " **ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** " أى أن هذه هة الوصايا التى وصاكم بها الله تعالى فى التوراة والانجيل و على السنة الرسل السابقين لعلكم لو تدبرتم حقيقتها بعقول غير مقيدة بما اختلقه أهل الحظوظ والاهواء من الجدود والأباء لظهر لكم أن محمدا لم يأتكم الا بما كانت عليه الرسل والأنبياء , وأنه الصادق الأمين , وأنه حقا رسول الله وخاتم النبيين .

قوله تعالى " **وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** " وهى الوصية السادسة , وقد وصاكم الله فيها بالحذر , حال التصرف فى مال القصر الذين فقدوا أباءهم , فلا تأخذوا من أملاك اليتامى أى شىء كبر أو صغر الابقدر معلوم حسب العرف وما يبيحه الشرع , وذلك عندما تكونوا فقراء وفى حاجة الى الأجر الذى يتناسب مع عكوفكم على ادارة أموالهم وقوله تعالى " **حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** " أى حتى يبلغ الحلم وهو سن الرشد والنضج والعقل فادفعوا اليهم بأموالهم يديرونها بأنفسهم .

قوله تعالى " **وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ** " أى أعطوا الكيل حقه فيما يكال ,وأوزنوا بالقسطاس المستقيم فيما يوزن حسب الاصطلاح المتفق عليه فى البيع والشراء حتى لا تبخسوا الناس أشياءهم ,

قوله تعالى " **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى** " أى اذا تحاكم اليكم الناس فى أمر من الامور , أو طلبوا شهادتكم فى شىء تعرفون حقيقته , فكونوا عدولا فى حكمكم ومحايدين فى قولكم , فلا تميلوا الى جانب دون جانب , أو تجوروا على فريق لصالح الفريق الآخر بسبب قرابة أو نسب أو صداقة أو صحبة أو أستلطاف , أو أى شىء كامن فى أعماق نفوسكم , وأعملوا أن الله تعالى يعلم السر وأخفى .

قوله تعالى " **وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ** " أى واذا عاهدتم عهدا فأوفوا به ولا تنقضوه , وأعماوا أن الله شهيد على كل عهد عقدتموه " **ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** " أى أن الله تعالى قد أنزل تلك

الوصايا فى كتبه وعلى السنة أنبيائه ورسله رحمةمنه بكم , وفضلا وأحسانا عليكم , لعلكم تتذكرون عهود الله التى عاهدكم بها قبل ظهوركم فى هذه الحياة , مثل عهد الميثاق , وعهد الست بربكم , فتوفوا بعهده فتنالوا الخي العميم والجزاء العظيم فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى " **وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً** " أى وأن هذا الذى ذكرته لكم من الوصايا , واكدته باداة التوكيد هو طريقى المستقيم الذى لاعوج فيه " **فَاتَّبِعُوهُ** " وهذا الامر بالاتباع يجوز أن يكون المقصود منه أتباع الطريق المستقيم , كما يجوز أن يكون المراد به أتباع الوصايا التسعة التى سبقت الامر , ومن الجائز ايضا أن يكون الامر منصبا على اتباع رسول الله وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى " **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** " ([1]) وصواب هذه الجوازات الثلاث حق لا ريب فيه , لأن اتباع طريق الله المستقيم ,هو عين اتباع وصاياه سبحانه وتعالى , واتباع وصايا الله يقتضى اتباع رسول الله الذى ارسله الله الى عباده يهديهم الى صرط مستقيم.

قوله تعالى " **وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** " أى ولا تسيروا فى سبل الحظوظ النفسية والاهواء الشخصية , فتضلوا عن سبيل الهدى والرشاد , وتنزلق أقدامكم الى سبيل الفساد , فتحرموا من الفلاح الكبير والفوز العظيم , الذى يتيحه لكم السير على الصراط المستقيم الموصل الى جنات النعيم المقيم .

قوله تعالى " **ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** " أى أن هذه هى الوصية العاشرة التى وصاكم بها ربكم لكى تتحاشون بمقتضاها الوقوع فى مساخط الله ومغاضبه , وتنالون بها رضوانه وتقواه ,وتفوزون فى الآخرة بالخلود " **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ , فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** " ([2]) .

والملاحظ فى تلك الوصايا ان الله بدأها بتحذير عباده من الشرك به سبحانه , وختمها بنهيهم عن اتباع سبل الحظوظ والاهواء فتفرقهم عن سبيله ,ومن العجيب أنه يوجد ارتباط وثيق بين الوصية الاولى والوصية الأخيرة , حيث أن الشرك له أنواع ثلاثة , شرك جلى ظاهر , وهو شأن المشركون صراحة والكافرون علانية , وهؤلاء هم الذين عناهم الله تعالى بقوله " **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ** " ([3]) وشرك خفى باطن , وهو ما يضمره المنافقون الذين يظهرون غير ما يبطنون , وقد دلنا الله عليهم فوصفهم بالتهاون فى القيام بما شرع الله فقال جل جلاله " **وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً** " ([4]) والشرك أخفى من الخفاء , يدق أمره عن مدارك العلماء , بل وقد يخدع أتقى الأولياء , سر قول رب الارض والسماء " **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** " ([5]) .

وهذه الأنواع الثلاثة من الشرك الذى حذرنا الله منه , لها سبل كثيرة وعديدة , وأن كان اساسها الذى تفرعت عنه ثلاث سبل .

([1]) سورة آل عمران آية : 31 .
([2])سورة القمر آية : 54 – 55 .
([3]) سورة البقرة آية : 6 .
([4]) سورة النساء آية : 142 .
([5]) سورة يوسف آية : 106 .

السبيل الاول هو شأن الذين " **خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ** " ([1]) فتجلت تلك الغشاوات فى مظاهر الموجودات , وما فيها من أسباب ومسببات , فاخفت عن مدارك عقولهم تصاريف الاسماء والصفات , فحكموا بطبيعة الوجود , وأنكروا الاله المعبود .

والسبيل الثانى : هو شأن قوم اتصفوا بشدة الحرص على الحياة الدنيا فكان حرصهم هذا هو مصدر ضعفهم وذلهم , وسعوا الى ستر أنفسهم بشيء قليل من الدهاء , وقدر كثير من اللؤم , فترددوا بين أهل الجهالة والظالمة ذو القوة الغاشمة , وأهل الكفر النورانى من ذوا القوة الايمانية , " **مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء** " ([2]) ويحاولون خداع الطرفين , والسيطرة عليهما عن طريق الايقاع بينهما , واستغلال أى فرصة للنيل منهما " **وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** " ([3]) .

والسبيل الثالث : هو شأن قوم طيبين فطرهم الله على الإخلاص وحسن النية , فتراهم أسرع الناس استجابه لمن يدعوهم الى الإيمان بربهم , ويبذلون النفس والنفيس فى سبيل ما يعتقدون أنه حق , ويصدقون كل داع لما جلبوا عليه من الصدق , وقد يرقى منهم مقامات المعرفة والولاية من عنده بصيرة وسملته العناية , أما كل من غلبت عليهم سلامة الطوية , فتخدعهم مظاهر الكرامة , دون النظر فيما عند أهلها من الاستقامة , فهؤلاء حقل خصب لكل كسول آبق , وكل مخادع منافق لسهولة جمعهم على أى ناعق .

وخواتيم الآيات الثلاثة من قول الله تعالى " **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** " ثم قوله جل شأنه " **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** " ثم قوله جل جلاله " **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** " فيهم إشارة تبين للناس أن استعمال العقول من الزم لوازم تذكر الإنسان لما كان من أيام الله , فيؤدى هذا التذكر الى اتقائه لغضب الله , أسأل الله لى ولكم أن يمنحنى وأياكم عقولا نورانية , وذاكرة أيمانية , وتقوى قلبية حقيقية , تنفعنا فى الدنيا ونرفع بها فى الآخرة , أنه مجيب الدعاء

قوله تعالى " **ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ "(154).**

بعد أن ذكر الله تعالى وصاياه العشرة فى آياته الثلاثة السابقة فى صيغة خطاب مباشر لأة محمد صلى الله عليه وسلم , ناسب أن يخبرهم بأن هذه هى نفس الوصايا التى وصى بها أمة موسى عليهالسلام , فقال تعالى " **ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ** " أى يا أمة محمد الصلاة والسلام , اعلموا أن الوصايا التى وصيناكم بها على لسان رسولنا محمد ليست جديدة , وأنما هى نفس الوصايا العشر التى آتيناها موسى فى كتاب التوراة " **تَمَاماً عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ** " أى وهى لم تزل كاملة تامة على أحسن وجه عند أفراد قلائل من اليهود الذين لم يخونوا عهد موسى ولم يخفوا من وصاياه شيئا .

قوله تعالى " **وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ** " أى قاموا بالعمل بها , توضيحها وشرح معانيها , لكل من يقبل عليها ويطلب تفصيلها , والافتاء فيها حسب زمانهم ومكانهم , وذلك فضل من الله " **وَهُدًى وَرَحْمَةً** " أى هداية لهم الى صراط الله المستقيم , ورافة وحنانا من ربهم الرحمن الرحيم .

قوله تعالى " **لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ** " أى أننا أنعمنا عليهم بكل هذه النعم , وفضلناهم على العالمين فى عصرهم , لاجل أن يؤمنوا بأنهم حتما سيموتون , ويوم القيامة سيبعثون , وعما

([1]) سورة البقرة آية: 7 .
([2]) سورة النساء آية : 143 .
([3]) سورة البقرة آية : 14 .

أستودعناهم من وصايانا سيسألون , ولعل ايمانهم بيوم الدين , يرجعهم عن تكذيبهم لرسالة خاتم النبيين , فيصدقونه ويؤازرونه كما أمرهم رب العالمين , فينجيهم الله يوم القيامة من عذاب اليم .

وكما هى عادتنا فى الكشف عن اسرار الآيات , نبين أن وجود كلمة ثم التى تفيد التأخير والتعقيب , فيه اشارة ذوقية لا تغيب عن أهل المعية الذين سبقت لهم من الله الحسنى , فنستعين بالله تعالى ونقول : أن كلام الله تعالى واحد لا يتغير ولا يتبدل , فهو قديم أزلى , وقد أبرزته الأرادة بدا كتابا مباركا مهيمنا جامعا لما كان وما يكون , ثم أنزله الله من سماء عزته وكنز قدرته على محمد فى عالم البدء الاول قبل خلق السموات والارض وما بينهن , وجمع عليه كل عوالم الارواح النورانية , وجميع حقائق الاشباح اللونية , ثم أشهدهم الله جميعا ميثاقه مع أنبيائه ورسله , وعاهد الاولين والآخرين من خلقه على الايمان به ونصرته , ثم خلق السموات والارض من نور رحمته , ثم أنشأ آدم بشرا سويا جمع فيه عالمى خلقه وأمره , ولهذا أسجد له جميع ملائكته وسخر له كل خلقه , وأسكنه هو وزوجه فسيح جنته وأباح لهما كل مافى الجنة ماعدا شجرة واحدة , فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . وقال " **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى** " ([1]) ثم أنزل من هذا الكتاب الجامع الشامل كلمات على آدم حسب زمنه , ثم صحف شيث وإدريس وإبراهيم وغيرهم حسب زمن كل رسول ومدى تقدم أمته " **ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ** " فتكون ثم قد جاءت بهذا المفهوم فى موضعها وأدت رسالتها حسب خصائصها فى اللغة تفيد التعقيب والتأخير , وليست لترتيب الاخبار كما تأولها بعض علمائنا الاخيار , وبهذا المفهوم ندرك معانى مثل هذه الآيات فى القرآن مثل قوله تعالى " **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ** " فالمراد بالذكر هو القرآن, والزبور هو كتاب داود , فكيف يأتى كتاب محمد قبل كتاب داود الا بهذا المعنى المؤيد بالآيات , ولولا خوف التطويل لذكرنا الكثير باتفصيل.

قوله تعالى " وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (155) .

قوله تعالى " أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ" (156) .

قوله تعالى "أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ "(157) .

بعد ذكر الله تعالى لكتاب التوراة , وأخبارنا بانه هدى ورحمة لبنى أسرائيل فى زمن موسى عليه السلام , ناسب أن يعقب بذكر الكتاب الخاتم الذى أنزله سبحانه على النبى الخاتم صلى الله عليه وسلم فقال تعالى " **وَهَـذَا كِتَابٌ** " واسم الاشارة هنا يدل بقربه على أن القرآن الذى أنزل ختما على ختم هو الكتاب الكلى الجامع لما كان وما يكون , والشامل لكل مابين الكاف والنون , فقد كشفت صيغة قرب المتكلم من المخاطب فى قوله " **أَنزَلْنَاه**" أن القرآن نور علمه الرحمن لحقيقة الانسان النورانية , ثم أنزله سبحانه من سمو النزاهه الآلهية - حيث كان لا صوت ولا حرف – الى دائرة الحروف والاصوات فى مقام العبدية , وجعله ميسر فى صورته البيانية سر قول رب البرية " **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** " ([2]) وقوله جل شأنه " **الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ**

([1]) سورة طه آية : 121 – 122 - 123 .

([2]) سورة القمر آية : 40 .

الْإِنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ " ([1]) أى أن الله تعالى علم القرآن لحقيقة الانسان وهو لايزال نورا فى عالم الامر ,ثم أنزله سبحانه الى دائرة الحروف والاصوات ليعلمه البيان فى عالمالخلق.

قوله تعالى " **مُبَارَكٌ** " أى قابل للنمو والزيادة بغير حصر ولا نهاية خصوصا اذا كان مقدر البركات هو رب الارض والسموات وقوله " **فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ** " أى أيها الناس أتبعوا هذا القرآن الذى انزلناه , واقتدوا فى اتباعكم برسولنا الذى ارسلناه . واتقوا غضب الله واطلبوا رضاه , فاعملوا بما أمركم وأنتهوا عما نهاكم " **لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** " أى يدخلكم الله فى رحمته ويغفر لكم ذنوبكم .

قوله تعالى " **أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا** " أى أحذروا أيها الناس أن تقولوا أنما نحن قوم أميون لا نعرف سوى لغتنا . وقد نزل الكتاب على اليهود والنصارى من قبلنا , فقد جاءكم كتاب عربى مبين , جامع شامل لكل ما فى كتب الاولين ومهيمنا عليها فأصبحتم لا حجة لكم فى قولكم " **وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ** " أى عاجزين عن دراسة التوراة والانجيل لعدم معرفتنا بلغتهم الاعجمية

" **أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ** " أى تجادلوا بحجة أنكم لاتعرفون سوى اللغة العربية , وأنكم لم تكونوا حاضرين فى زمن موسى وعيسى عليهما الصلاة و السلام , وتقولوا لو أنزل الله علينا كتابا مثل قوم موسى وعيسى لكنا أحسن منهم أقوالا وأعمالا وأحوالا وهداية وعلما ودراية " **فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ** " أى جاءكم قرآن مبين , بلسان رسول رؤوف رحيم أمين , فأصبحتم لاعذر لكم فى تكذيبكم بأيات ربكم .

قوله تعالى " **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا** " أى فليس بعد ذلك فى الوجود أحد أشد ظلما وجهلا ممن كذب بما أنزل الله من آيات قرآنية كريمة , بلغة عربية جلية سليمة ,وأعرض عنها رغم وضوح بيناتها " **سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ** " أى سنعاقب الذين يعرضون عن آياتنا ويتركون العمل بها عقابا يسوءهم بسبب عنادهم لرسولهم الذى جاءهم بتلك الآيات من عندنا .

وفى هذه الآيات بعض الاشارات نذكر منها الاشارة الى انزال آيات الكتاب , وهو كلام قديم لب عليم حكيم , وكيفية أنتقاله فوق أدراك العقول , لانه معنوى منزه عن صوت يوصله , وعن أى حرف يحمله , وبالتالى ليست اعبارة بتينه , ولا الاشارة ترسمه , وأنما هى أرادة الله وقدرته , وعلو حكمته فى تدبير مشيئته , نقلته من سماء العزة الالهية المنزهة عن الجهة والمكان ,وعن الاين والبين والزمان , وأنزله سبحانه الينا على قلب رسول أمين , مترجما بلسان عربى مبين , بعد أن أعدنا لعلمه , وأهلنا لفهمه , فله الحمد على عظيم فضله , وله الشكر على تمام نعمه .

واشارة تومى الى سر البركة فى قوله تعالى " **مُبَارَكٌ** " فالبركة الالهية لا حصر لها ولا نهاية لحدودها , وبالتالى فالقرآن مبارك فى علومه , مبارك فى أحكامه , مبارك فى دلالته , مبارك فى هدايته , مبارك فى رموزه , مبارك فى كنوزه , مبارك فى ظاهره , مبارك فى باطنه , مبارك فى حدوده , مبارك فى مطلعه , مبارك فى أقواله , مبارك فى قرآته , الخ . فكل سورة من سوره , وكل آية من أياته وكل عبارة من عباراته , وكل اشارة من اشاراته , وكل رمز من رموزه بل وكل حرف من حروفه له معان عديدة ووجوه كثيرة لا تحصى ولا تحصر , وكفى أنه صفة من صفات الله التى لا أول لها ولا آخر , فبركاته من الله وبالله وعن الله , وقد ضاقت الارض و السموات عن أن تسع تلك البركات , فالملك والملكوت بكل ما فيها من صفات الجمال والرحموت ,

---

([1])سورة الرحمن آية : 1 – 2 – 3 – 4 .

وصفات الجلال والجبروت , ما هى الا بركات كلمة " **كُن فَيكون**" فكيف بباقى الآيات , وما فيها من اسماء وصفات الكمالات , ونكتفى بهذا القدر لان كلام الله لا يحيط به سواه .

قوله تعالى " **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ" (158) .**

بعد أن ذكر الله تعالى للكافرين والمنافقين ومنكرى رسالة رب العالمين , ما أنزله سبحانه من قرن على رسوله , وجعله مبارك وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . ناسب ان يذكر لهم فى هذه الآية نهاية ما يصيبهم اذا أصروا على كفرهم وعنادهم بعد أن بين لهم فساد رأيهم , وفند حججهم , وأقام الحجة عليهم , فقال تعالى : " **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ** " أى ان الحالة التي ينتظرها المكذبون عند الموت , هى رؤية الملائكه التى تاتيهم على هيئة تحزنهم وتزعجهم " **أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ** " أى او يكشف الله عنهم حجاب الربوبية , فيرون وجه ربهم عيانا على وجه اليقين , فيندمون ندما أشد من عذاب الجحيم" **أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ** "اى او يريهم الله شيئا من دلائل عظمته ,وعلامات عزته , وتجليات جبروته وقهره , فيتوبون عن كفرهم ويعلنون ايمانهم ولكن الله تعالى يقول لهم محذرا ومنذرا" **يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا** "اى عندما تظهر بعض علامات الموت فى اليوم الاخير من العمر , و ياتى عزرائيل لقبض الارواح استعدادا للرحيل , وينكشف الغطاء عن عيون البصر , وتصير شاخصة الى الحق , وترى ان كل ما كانت عليه باطل فتعلن ايمانها فلا ينفعها عند ذلك بشىء لانها "**لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرا**"حيث لم يسبق لها ايمان قبل ظهور الايات , فالايمان عند تحقق الموت لايفيد , لأنها لن تستطيع ان تكسب بأيمانها هذا الذى جاء فى أخر لحظة , شىء من طاعة أو توبة , أو تنال أى خير , بعد أن وهن الجسد ولم بعد قادر على شىء وجاءت سكرات الموت ونهاية الاجل .

قوله تعالى " **قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ** " أى قل للمنكرين الملحدين , المكذبين الضالين , من الطبيعيين المخدوعين , والمشركين الكافرين , فى كل وقت وحين , انتظروا هذا اليوم الذى توعدون , أنا معكم منتظرون , ويومئذ يعرف الكاذب من الصادق ,ويحق الله الحق ويبطل الباطل , يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

وفى هذه الآية اشارة تومى الى ظهور الملائكة بحقائقها الملكوتية فتراها النفوس الانسانية , عند خروج الارواح من أجسادها البشرية , فملائكة العذاب تقبض ارواح أهل الفساد الظالمين , سر قول رب العالمين " **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ** " ([1]) وملائكة الرحمة تقبض ارواح الطيبين بدليل قوله تعالى " **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** " ([2]) ومن الناس منيقبض روحه عزرائيل سر قول الله الجليل " **قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**" ([3]).

قوله تعالى "**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ" (159) .**

([1]) سورة النحل آية : 28 .
([2]) سورة النحل آية : 32 .
([3]) سورة السجدة آية : 11 .

بعد أن بين الله تعالى فى الآية السابقة , أحوال الناس عند احتضار أرواحهم للموت , وشهودهم للملائكة المكلفون بقبض أرواحهم , فيروهم عيانا بسبب زوال حجب الانسانية , ورفع استار البشرية , فيصيروا قادرين على رؤيا الآيات الملكوتية , وهذه هى العلامة التى تدل الانسان على دنو أحله ,فمتى رآها علم قرب لقائه بربه ,وفى هذه الآية يبين الله تعالى سبيل نجاة الانسان من هول هذا اليوم فيقول جل جلاله " **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ** " أى جعلوه أجزاء وفرقا فأخذوا بعض أوامره وتركوا البعض الاخر , وتعصب كل فريق نصرة لما أخذ , وعداوة لما ترك , فصاروا شيعا وأحزابا يعادى بعضهم بعضا " **وَكَانُواْ شِيَعاً** " أى طوائف متعددة , وفرق مختلفة لاتجمعهم مرابع ولا مراتع .

قوله تعالى " **لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ** " أى بسبب تفريقهم بين مناسك دينهم , فليس لك عندهم مطمع فى هدايتهم , بعد أن ضلوا السبيل , فارح نفسك منهم ولا تتعرض لهم , فانك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء " **إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ** " أى أن جميع أعمالهم وعقائدهم وأحوالهم عائدة الى رحمة الله جميعا من صغيرها الى كبيرها , فهو ربهم ويعلم ما تخفى نفوسهم " **ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ** " أى ثم يخبرهم الله يوم القيامة بجميع أفعالهم التى فعلوها , ويظهر لهم فساد عقائدهم التى اعتقدوها , ويجازيهم بقدر ما أرتكبوا من أفعال .

وفى هذا المقام , يلزمنا أن نشير الى أن الاختلاف بين طبائع الناس أمرا تقتضيه وسعة الله وعظيم قدرته سبحانه , ولهذا فالتفرق أمر وارد لامفر منه الا أنه ينقسم أربع أقسام : محبوب , مطلوب , مكروه , محرم .

ومثال التفرق المحبوب ظاهر فيما أخبرنا الله به من قول موسى عليه السلام " **قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ** " ([1]) لأنه تفريق بين الحق والباطل وقد كنى ابن الخطاب بالفاروق من أجل ذلك .

ومثال التفرق المطلوب , هو التفريق بين الصبية البالغين فى المضاجع , والتفريق بين أى زوجين دبت العداوة والبغضاء بينهما , وأستحالت عشرتهما , سر قول العليم الحكيم سبحانه " **وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعاً حَكِيماً** " ([2]) .

ومثال التفرق المكروه , وهو التفريق بين الرحل وامرأته ظلما وعدوانا , وعلى غير ارادتهما بالقوة الغاشمة , أو بالدسائس والاعمال الملعونة , كما هو مفهوم من قوله تعالى " **فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ** " ([3]) والتفريق بين الجماعة حال أنتظارهم لفرج من الله ينقذهم , أو قائد يرشدهم الى ما فيه خيرهم , سر ما اخبرنا " **قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي** "([4]) فقد خشى النبى هارون أن يفرق بين من أطاعوه من بنى اسرائيل ومن عصوه منهم فى غياب أخيه وكان تصرفه هذا فى منتهى الحكمة .

ومثال التفرق المحرم , هو التفريق بين مناسك الدين فيأخذ كل فريق ما يعجبه ويد مالا يعجبه , كما هو مفهوم من الآية التى نحن بصدد شرحها , كذلك التفريق بين الله ورسله سر قوله

([1]) سورة المائدة آية : 25 .
([2]) سورة النساء آية :130 .
([3]) سورة البقرة آية : 102 .
([4]) سورة طه آية : 94 .

تعالى " **وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ** "([1]) ولا يفوتنا في هذا المجال , من أن نحذر من بعض أنواع التفريق المكروه , الذى قد يصير محرما تحت بعض الظروف , مثل الاختلاف ات فى الرأى حول بعض فروع الدين , والتى تعترى علماء المسلمين , فيندفع كل فريق فى التعصب لرأيه تعصبا يؤدى به الى تكفير الآخرين . أسأل الله لى ولجميع أخوتى المؤمنين , النجاة من فتنة التعصب للرأى وتكفير المسلمين أنه سبحانه قريب مجيب .

قوله تعالى "مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ "(160)

بعد أن بين الله تعالى فى الآية السابقة , مغبة التفريق بين شعائر الدين , وكيف أنه يفرق الجماعة الى شيع وأحزاب , وكفى ذلك خسرانا مبينا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم برىء من هؤلاء المفرقين , لأنه ليس منهم فى شىء , وأن جزاءهم فى الآخرة بيد الله وحده , ناسب أن يذكر لنا فى هذه الآية أساس المحاسبة وقاعدة الجزاء حتى يكون كل انسان على بينة من أمره فقال تعالى " **مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا** " أى اعملوا أيها الناس أن ربكم الذى خلقكم رب عادل فى حكمه , وأن قانونه الذى وضعه لحسابكم يوم القيامة , قد راع فيه مدى جهوليتكم ودواعى ضعف نفوسكم , فجعل ثواب الحسنة عشر أمثلها من الحسنات رغم البون الشاسع بين حسناتكم وحسنات ربكم , وجعل عقاب السيئة من سيئاتكم بسيئة واحدة مثلها " **وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا** " وهذا فضل من الله ورحمة بكم لعلمه سبحانه بمدى ضعفكم وعدم تحملكم لاساءات بعضكم .

وقوله تعالى " **وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ** " أى أن الله تعالى على حكم وعادل كريم لا يظلم أحدا من خلقه , لانه سبحانه لا تنفعه حسناتكم ولا تضره سيئاتهم ولهذا قال جل شأنه" **إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**"([2])

وفى هذه الآية اشارة ذوقية تبين أن فعل شعائر الدين , كما أنزلها رب العالمين , على رسوله وخاتم أنبيائه محمد الامين , هى فعل للحسنات , وأن الخروج على شعيرة واحدة من شعائره , وتركها عن عمد أشتغالات بلعب أو لهو , أو عن غير عمد كتقصير أو سهو فهو فعل للسيئآت , وكذلك مضاعفة الحسنات , ماهى الاكرم آلهى واجه الله به حبيبه ومصطفاه , محمد بن عبد الله , فى ليلة الاسراء , اذ خفف الله عن أمته فريضة الصلاة ,وجعلها خمسة فى الفعل و خمسين فى الأجر , والقدير الكريم اذا سن سنة لا يغيرها , و اذا أعطى عطاء لايسلبه , ولا يرجع فيه , فأجرى تلك السنة على جميع الصالحات وعممها على كافة الحسنات , بل وأنه سبحانه يضاعف الثواب لمن يشاء , فالحسنه بعشر أمثالها , والنفقة فى سبيله بسبعمائة وزيادة , والقرض الحسن يضاعفه له أبغير نهاية فقال تعالى " **مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً** " اسأل الله تعالى ان يغفر لنا ذنوبنا وأن يكفر عنا سيئاتنا , ويعاملنا برحمته لا بعدله .

قوله تعالى **"قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (161)**

بعد أن بين الله تعالى ضرر التفريق فى الدين , والمح الى أن المتمسك بالشرائع فاعل للحسنات , والمقصر فيها مرتكب للسيئات , وذكر اسس الثواب والعقاب التى سيحاكم بمقتضاها الناس يوم القيامة , ووضح لنا مبلغ كرامه وواسع رحمته فى بنود قانونه , وان الناس الذين

([1]) سورة النساء آية : 150 .

([2])سورة الأسراء آية : 7 .

سيحكمون بموجبه لايظلمون , ناسب ان يأمر رسوله وخاتم أنبيائه بأن يحدث قومه بنعم الله تعالى عليه وعلى كل من تبعه و أقتدى به صلى الله عليه وسلم فقال سبحانه " **قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** " أى قل لقومك والناس أجمعين , أن ربى هدانى الى طريق القويم , وهو الدين القيم المعتدل الذ ى لاعوج فيه ,فلا تفريط ميلا الى الدعة والكسل , ولا تهاون خضوعا للحظوظ والاهواء , ولا افراط مرهق لقوى الابدان , ولا غلو يفسد عقيدة الوجدان , " **دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً** " وهو دين الاسلام الذى أرتضاها الله لجميع الانام وقد جعله الله شرعا للخليل أبراهيم عليه الصلاة والسلام , حنيفا مسلما لله الواحد الاحد " **وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** " الذين عبدوا الكواكب وبعض الحيوانات والاصنام ,بل كان مستسلما لله تعالى راضيا عن الله فى جميع شؤونه .

وفى طى هذه الآية اشارة توضح بأجاى عبارة أن الدين واحد لم يتغير شىء من أصوله , ولم يتبدل شأن من عقائده , من عهد الخليل ابراهيم ومن سبقه من الانبياء عليهم جميعا الى نبى الختام افضل الصلاة وأزكى السلام , وهو دين الاسلام أى الاستسلام , وقد سمانا الخليل ابراهيم بالمسلمين بعد أن أستسلم لله تعالى فى محنه القائه فى نار النمرود , وفى محنة أمره فى المنام بذبح أبنه الوحيد , وهما يدلان على استسلامه لله تعالى فى كل ما دونهما , نسأل الله أن يجعلنا جديرين بما سمانا الخليل ابراهيم .

قوله تعالى**"قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (162) .**

قوله تعالى **"لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** "(163) .

بعد أن أمر الله حبيبه ومصطفاه فى الآية السابقة , بأن يتحدث الى الناس كافة , ويخبرهم بنعم الله التى أنعم بها عليه , فهداه الى طريق أبو الأنبياء الخليل ابراهيم , عليهم جميعا الصلاة والسلام ناسب أن يأمره فى هذه الآية بمواصلة الحديث واخبار الناس مدى استسلامه لله اقتداء منه بخليل الله فقال " **قُلْ إِنَّ صَلاَتِي** " المتمثلة فى دعائى وقيامى وركوعى وسجودى " **وَنُسُكِي** " أى كل عبادتى من توحيد قلبى وعمل بدنى بل " **وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي** " أى حياة جسدى وروحى , وممات نومى وفناءى عن وجودى الى وفاتى الوفاة الكبرى كله " **لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** " لانه الخالق الذى خلق الموجودات , وأمدها بما به قوام حياتها , فهو الآله الواحد الاحد الفرد الصمد الذى " **لاَ شَرِيكَ لَهُ** " ولا معين ولا شبيه ولا مثيل ولا نظير " **وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ** " أى وبهذه العقيدة القلبية , والعبادة العملية , والشريعة الدينية , أمرنى ربى فأطعته " **وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** " أى وأنا أول العابدين المستسلمين لاوامر رب العالمين .

وفى هاتين الآيتين اشارة تومىء الى كمال التوحيد المحمدى الخالص الذى لا تشوبه أى شائبة من شرك خفى أو أخفى , لأنه ε فى توحيد بفضل الله تعالى بين أولية الحقية فى مقام الأحدية , وبين الآخرية فى مقام الواحدية , وبينهما فى مقام الوحدانية , حيث كان عبدا أحمدا قبل ظهوره , تم أصبح عابدا محمدا حال بعثة , وأخيرا صار محمود فى عبودته بعد أنتقاله الى جوار ربه , فهو أول العابدين فى مقام العبدية , وأول المسلمين – بفتح السين – فى مقام العبادة , وأول شفيع يوم القيام فى مقام العبودية الحقة , أسأل الله تعالى لى ولكم حسن اتباعه , والسير على منهاجه , حتى نتمتع يوم القيامة بمعيته أن الله مجيب الدعاء .

قوله تعالى **"قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ"(164) .**

بعد أخبرنا الله تعالى فى الآيتين السالفتين , بما أمر به رسوله وخاتم أنبياؤه ε , من أن يقر ويسلم بحقيقة التوحيد السليم , الذى يقتضى من العبد نسب النعم الى المنعم سبحانه , وكل فعل الى

رب فعال لما يريد , فالهداية الى الطريق القويم من فضل رب عظيم فصلاة العبد ونسكه ومحياه ومماته لله رب العالمين وحده لاشريك له , فالخلق خلقه , والأمر أمره , والفعل فعله , والعون والتوفيق من فضله , ثم ينسب العمل كرما الى عبده , وتحدثا بنعم الله أن يثيبه على ذلك بخير ثواب , هل بعد ذلك يجوز للعبد أن يتخذ من دون الله ربا لايضر ولا ينفع , حاشا لله أن يفعل ذلك عبد وفقه الله ولهذا أمر الله هذا العبد بقوله " **"قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبّاً** " أى قل يا محمد لقومك والناس جميعا فى تساءل استنكارى , ابعد كل هذه النعم من الله , يليق بى أن أختار الها غيره أو أطلب ربا سواه " **وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ** " ومعلوم أن كلمة شيء تشمل كل الموجودات الظاهرة التى ترى , أو تلمس , أو تحس , أو تشم , أو تذاق , سواء بواسطة الحواس المجردة أو بالاستعانة بما وفقنا الله الى اكتشافه من خصائص الكائنات .

وقوله تعالى " **وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا** " سواء كان خيرا أو شرا , حسنا أم سيئا , فهو على نفس المكتسب , وسيأتى يوم القيامة يحمل عمله ولاحجة له , وقوله سبحانه " **وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** " أى ولا تحمل نفس فعل نفس أخرى , ولا تجازى نفس بجزاء نفس غيرها"**ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ**" بعد انتهاء آجالكم فيحاسب كل نفس بما كسبت من مواهب وعطايا , ويجازيها بما أكتسبت من أفعال وخطايا " **فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** " أى يريكم رؤيا عيان حقائق ما كنتم فيه تجادلون , وعليه تتنازعون , وبسببه تتفرقون , ثم تتخاصمون وتتقاتلون .

قوله تعالى **"وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ"(165) .**

بعد أن تفضل الله وأمر حبيبه ومصطفاه , بأن يقول للناس أجمعين , فى صيغة استنكار ظاهر مبين , أيليق بعبد أنعم الله عليه بكثير النعم , وأبعده بفضله عن كل موجبات الغضب والنقم , أن يبتغى غير الله ربا وهو رب كل شيء , وخالق كل شيء , وممد كل شيء , وأن كل نفس رهينة بما عملت , ومقيدة بكل ما كسبت , لها ما أحسنت وعليها ما أساءت , ولا حجة لها على ربها , ناسب أن يذكر فى هذه الآية أسباب ذلك فقال جل من قائل " **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ** " أى وهو الذى جعل كلا منكم خليفة فى الارض , فاعطاه امكانيات تلك الخلافة , وهيأه لحمل تلك الامانة , فأمده بارادة من ارادته , ومشيئة من مشيئته , وقدرة من قدرته , وجعل له نورا فى فؤاده يتدبر به حقائق ما يسمع وما يبصر , فيعرف ماضيه ومستقبله قياسا على حاضره , وبهذه المعرفة الانسان نفسه , ومن عرف نفسه فقد عرف ربه , وبتلك المعرفة التى لم يعطى الله امكانياتها لمخلوق سواه , سيحاسبه الله على كل ما جنت يداه ان كانت خيرا فخير , وأن كانت شرا فشر ولا يظلم ربك أحدا .

قوله تعالى " **وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ** " من المعلوم أن كلمة **"درجة** " من حيث دلالتها على المكانة والمنزلة لها عدة مرادفات اخرى مثل المقام والطبقة والمرتبة والوظيفة وكلها تدل على المعنويات والماديات , وتعنى الرفع والفوق , أما يعنى الخفض والتحت فكلمة **"درك** " ولهذا قيل أن الجنة درجات والنار دركات . ومعنى الآية أن الله تعالى يضع كل أنسان فى درجة معينة من القوة والصحة والجمال ورخامة الصوت ورجتحة العقل والمعرفة والشرف والمال والجاه والوظيفة , فجعل سبحانه انسانا جميلا وآخر قبيحا , وهذا قويا وذاك ضعيفا وهذا غنيا وهذا فقيرا , وهذا عزيزا وهذا ذليلا , وهذا عاقلا وهذا سفيها , وهذا عالما وهذا جاهلا , وهذا ملكا وهذا مملوكا وهذا حاكما وهذا محكوما " **لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ** " أى ليختبركم امتحانا لكم ليظهر كيف تتصرفون , ليس هذا لأنه يجهل ما ستعملون , وانما ليخرج فى عالم الجهر ما كان خافيا فى عالم البطون , فيقيم الحجة على الجاحدين بنعم الله من الظالمين , ويفرق بينهم وبين أهل الشكر من المحسنين , ويجازى

كلا بما يستحق فى الدنيا ويوم الدين **" إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ "** أى ان عقابه لا حق حتما بالقوى الذى يقهر الضعفاء , ولا يترك كل خب لئيم يستهزء بالشرفاء , و لا الغنى الذى يتعالى كبرا على الفقراء , ولا الجميل الذى يستعمل جماله فى الفساد , ولا العالم زلق اللسان الذى يضل العباد , ولا كل عارف يتجنب طريق الرشاد , ومع ذلك فهو غفور لكل عبد رجع الى ربه وأناب , وأصلح قدر استطاعته بعد أن تاب , نسأل الله تعالى حسن الخاتمة فى الدنيا والآخرة أنه قريب مجيب .

وفى طى هذه الآية اشارة ذوقية , تطمئن قلوب العارفين بالله من أهل الدرجات العلية . لمعرفتهم معنى ختم سورة الانعام عليهم – بكسر الهمزة – بذكر اسميه **" غفور رحيم "**مؤكدين بأداتى التأكيد – أنه لغفور رحيم – فيسارعون عائدين الى أول السورة قائلين **" الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله "**, كما أن فيها ايضا رفع اليأس والقنوط عن كاهل أهل الدرجات الدنية , وذلك بتوكيدها وسعة مغفرة الله وعظيم رحيميته , بحيث لو عرف معناها أهل العصيان والغواية , لتابوا الى الله وأنابوا وصاروا من أهل الطاعة والهداية , وقالوا الحمد لله الذى ختم حمده فى البداية , بتأكيده لغفوه ورحيميته فى النهاية .

ΠΙ

- سورة الأعراف –

قوله تعالى " بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ " ولقد سبق أن شرحنا ها فى سورة الفاتحة , ولكن نضيف فى شرحها فى أول هذه السورة أنه من المعلوم أن لكل بسملة معنى خاصا يناسب مكانها الذى ذكرت فيه , وهنا فى بداية السورة يكون معناها **" بِسْمِ اللهِ "** ينال الانسان المعرفة , ويظل يرقى فى معرفته درجة بعد درجة حتى يصير من رجال الأعراف . وبأسم **" الرَّحْمنِ "** علم الانسان القرآن , واهل بطبيعته لعلم البيان , وفهم تأويل الكتاب المنزل على النبى المرسل , فيشرح ويبين ويفصل المجمل . وبأسم **" الرَّحِيمِ "** قد يتخلق بخلق المصطفى , حتى يصير من أهل الصفا والوفا , وينال معية المصطفين الأخيار ..

قوله تعالى **"المص" (1) .**

قوله تعالى" **كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ" (2)**

.

سبق لنا ان بينا وسائل التعبير عما فى الضمير فى ايجاز يحتاج الى تفصيل , ولهذا نزيد الأمر وضوحا فنقول : أن الكلام اما قول بالعبارة , واما فعل بالأشارة , أما العبارة فهى أصوات فى صورة الفاظ متفق على مدلولها بين المخاطبين , وأما الاشارة فهى حركات فى صورة رسوم تفيد المطلوب , فجاءت الحروف لترمز بشكلها الى بيان المرغوب , ومن هنا نفهم معانى قول الله تعالى فى افتتاح هذه السورة **" ألف . لام . ميم . صاد "** فهما على قدرنا لا على قدر ربنا , فهى أربع

حروف ذكرت بأسمائها لابمسمياتها , فكانت أعظم دليل على أن هذا القول من عند الله , وليس من عند رسول الله محمد بن عبد الله , لأنه ε كان اميا نشأ فى قوم أميون , لايقراون ولا يكتبون , والأمى ينطق بمسميات الحروف لابأسمائها . وبما أنها من قول الله تعالى فلا حصر لمعناها رغم صغر مبناها , لان كلامه جل جلاله بلا بداية تعرف , ولا نهاية توصف سر قوله سبحانه وتعالى " **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** " ([1]) وكلمات الله ليست فى حاجة الى حروف رمزية , لأنها ليست ذات نبرات صوتية , وانما هى أنوار منزهة قدسية , تفاض على لطائف الحقيقة الانسانية , فتنطلق بها امكانيات المعالم البشرية . فتسجل بأبرة الحاكى ([2]) على اسطوانة وترسم على الورق بحروف مكتوبة .

قوله تعالى " المص" **هى أربع حروف افتتح الله بها سورة الأعراف , وقد احتلف جمهور العلماء فى تأويلها وبيان المقصود من ذكرها , فمنهم من قال أن الله تعالى أعجز بها أرباب الغة واقام عليهم الحجة بأجرائها على لسان النبى الأمى , ومنهم من قال أن الألف تشير الى الاسم الذاتى** " الله " **واللام تشير الى** "ملك الوحى جبريل" **الذى أنزله الله بالكتاب منجما , والميم تشير الى** " **محمد**" ε بصفته رسول الله وخاتم النبيين الذى يتلو القرآن على الناس أجمعين بلسان عربى مبين , والصاد تشير الى صورة المتجلية فى ورثته من بعده الى يوم الدين , ومنهم من وفر جهده وأراح نفسه وقال أن الله أعلم بمراداه , ومنهم من قال أن الحروف الأربع تشير الى الكتاب وورثته الثلاثة فى قوله تعالى " **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** " ([3]) ومنهم من قال ان الحروف الأربعة تشير الى الباقيات الصالحات فى قوله تعالى " **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً** " ([4]) وفى رأى أن كل ذلك ما يتعلق بذات الله تعالى , وأن كنت أنيل الى الربط بين الحروف والكتاب لما هو واضح فى ستة وعشرين سورة من التى افتتحت بالحروف , ولشمول اللغة العربية على كل النبرات الصوتية .

قوله تعالى " **كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ** " أى هذا كتاب عربى مبين , أنزل اليك لبيان فرائض واحكام الدين , ولتفصيل المجمل من رمزية الحروف الأشارية " **فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ** " أى فلا تجعل فى صدرك ضيق أو حرج مما سنفصل لك فيه من أوامر ونواهى وفرائض وأحكام " **لِتُنذِرَ بِهِ** " اى لتحذر المكذبين بآياته والمخالفين لأحكامه من عاقبة التكذيب والمخالفة " **وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** " أى وفى هذا الكتاب من التفاصيل ما ينشط ذاكرة المؤمنين به المصدقين بك وبمن أنزله عليك , فيتذكرون أيام الله تعالى تذكرا يجعلهم يستجيبون لك طائعين ولما تأمرهم به منفذين لا يخافون فى الله لومة لائم , وتثير هذه الآية بعض التساءلات , حول معانى خمس كلمات , وهى الكتاب , والانزال , والحرج , والانذار , والذكرى .

1. أما الكتاب فمعروف بأنه مجموعة من الصحف التى تحتوى على معلومات يبينها للقارئين بكلام رسمت حروفه كتابة بواسطة المداد , ويضمها غلاف

([1]) سورة لقمان آية : 27 .

([2])لقد أملى السيد الامام – رضى الله عنه – هذا التفسير على تلاميذه فى بداية القرن العشرين قبل ظهور آيات التسجيل الحديث للصوت والصورة

([3])سورة فاطر آية :32 .

([4])سورة الكهف آية : 46 .

كتب عليه تعريف به وبوضعه , مع اشارة الى المقصود منه , وهذا ما جعلنى أميل الى الربط بين حروف أوائل السور وبين محتوياتها , على أساس رمزية الحروف الى كنوز المعانى طى آياتها . ولنضرب لذلك مثلا بذكر بعض معانى كلمة الكتاب التى قد تعنى الشرع فى قوله تعالى " كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ " ([1]) وقد تكون بمعنى الحكم كما فى قوله تعالى " وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللّهِ عَلَيْكُمْ " ([2])وقد تكون بمعنى الوجود الكونى كله لقوله تعالى " وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ " ([3]) ونكتفى بهذا القدر من معانى كلمة الكتاب ومادة الكتابة فمجالها طويل .

2. وكذلك كلمة الانزال بكل مشتقاتها تعنى الكثير من المعانى , وسنقتصر هنا على ذكر معناها فى هذه الآية , فليس المراد هو الانزال من أعلى الى أسفل , أو الانتقال من مكان للنزول فى مكان , وانما المقصود هو ظهور الفضل الربانى , والتجلى الرحمانى , على الهيكل المحمدى الجسمانى , والذى اشرقت فيه كل تلك المعانى , وتحولت الى حروف آيات القرآن والسبع المثانى , بمحض القدرة الالهية , وأبرازا للمشيئةالأولية .

3. أما كلمة الحرج فهى تعنى الضيق الذى يصيب صدر الانسان مندما يتردد فى اذاعة خبر غير مستحب , وقد تلطف الله بحبيبه ومصطفاه , وأمره بعدم الحرج فى تبليغ ما أنزل اليه فى الكتاب من آيات الانذار بالعذاب , هذا لأن ما أتصف به الرسول ε من الرأفة والرحمة وحرصه على هداية قومه جميعا , حعلته ميالا الى التحدث مع قومه بآيات البشائر الجمالية , عزوفا عن ذكر آيات الانذار الجلالية , وذلك لخشيته عليهم من النفور والتكذيب , فيقعوا فى موجبات أليم العقاب , فكان يشعر بالحرج والضيق , كلما تصور مدى عذابهم فى نار الحريق .

4. والانذار هو التحذير لقوم مقدمين على أمر خطير , أو قادم عليهم خطر كبير , او يعملون شيئا عاقبته سوء المصير وقد تحقق من وقوعه النذير , فأسرع يحذر وينذر وقد اعذر من أنذر , وهذا هو النبى ε قد أطلعه الله على ما فى الآخرة من ثواب وعقاب , بعد حتمية عودة الناس الى الله فى يوم المساءلة والحساب , فقام يدعو قومه الى سبيل النجاة والسلامة , ويحذرهم مغبة سيرهم فى طريق الندامة , وينذرهم بالخطر الداهم والبلاء القادم الذى هم عنه غافلون , وبقربه منهم لا يشعرون .

5. أما الذكرى فحدث عنها ولا حرج , فميدانها واسع الأرجاء , وأبعاده فسيحة الانحاء , بحيث لا يبلغ حقيقتها جميع العلماء , بل ولا كل من أقلت الارض واظلت السماء , وانما هى كثيرة الموارد عظيمة المنافع والفوائد , لكل من تفكر فى

([1])سورة البقرة آية : 151 .
([2]) سورة النساء آية : 24 .
([3]) سورة الانعام آية : 38 .

آيات الأكوان , فآمن بالله الخالق الديان , قال تعالى " وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ " ([1]) وبما أن الذكرى لاتكون الا بعد نسيان , والنسيان لا يكون الا لأمور وقعت فى سالف الزمان , فما هى تلك الأمور التى سبق ان وقعت ثم نسيت فارسل الله الرسل لتذكير الناس بها سر قول العليم الحكيم لموسى الكليم " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ " ([2]) ولا ريب أن ذكرى هذه الأيام , ترفع الانسان من مقام الى مقام , حتى ليشهد المعانى العلية , التى وأجهته فى البدء عند النشاة الأولية , فتستعد لها كل نفس بقدر وسعها , ربنا لا تؤاخذنا أن نسينا أو أخطأنا , وأعف عنا وأنصرنا على أنفسنا , وأحعل ذكرى أيامك دواما فى قلوبنا , أنك قريب مجيب .

قوله تعالى **"اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (3)**

.

لما ذكر الله الكتاب المنزل الى النبى المرسل و لينذر به كل من جحد وكفر و ويذكر كل من آمن وشكر , ناسب أن يأمرنا بأتباع ما أنزل الينا من ربنا فقال سبحانه " **اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** " أى يا أيها الذين آمنوا وصدقوا أتبعوا رسولكم وأطيعوه فى كل ما يأمركم به لانه اليكم من ربكم عسى أن تتذكروا أيام الله السابقة واللاحقة على يوم حياتكم الدنيا فتنفعكم الذكرى فى دنياكم واخراكم " **وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء** "بما ضمير الغائب فى " **مِن دُونِهِ** "تشير الى ما انزل الينا من ربنا , يكون تأويل هذه الآية , ولا تتبعوا من دون ما انزل اليكم من ربكم ,ولا تتخذوا لكم من دون رسولكم الذى ارسل اليكم اولياء " **قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** "اى قلة قليلة هى التى ستتعظ بآيات القرآن ,وتتذكر أيام الواحد الديان ,فتتشوق الى ما سبق فيها من مواجهة نورانية,وشهود لمواثيق الهيه ,وجمال المخاطبة الربانية, فتستعد لما يلحق بها من برزخ يوصل الى لقاء الله , حشر فى الآخرة الى الله , وحساب يؤدى الى الثواب أو العقاب .

وفى نهاية تاويل هذه الآية نرى أن نذكر اشارتها الى حتمية تزاوج الاضداد و فى كل اشئون والأشياء التى تتعلق بالعباد , فقد أمر الله عباده باتباع ما أنزل اليهم من ربهم , ثم نهاهم عن اتباع ما يتفق مع حظوظ نفوسهم وشهوات أجسادهم , فقوله تعالى فى آية واحدة اتبعوا ولا تتبعوا , فيه اثبات لحق الاختيار الذى حمل أمانته الانسان , نسال الله أن يوفقنا لاداء امانتنا باحسان و انه نعم الموفق والمعين .

قوله تعالى : "وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ" (4) .

قوله تعالى : "فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ" (5) .

قوله تعالى : **"فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ "(6) .**

بعد ان أمرنا الله تعالى باتباع ما انزل الينا , ونهانا عن أتباع كل ما دونه , ناسب ان يعقب ذلك ذكر جزاء المخالفة والعصيان فقال سبحانه وتعالى " **وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا** " أى وكم من كثير من القرى والبلدان أهلكنا أهلها , بسبب عصيانهم ومخالفتهم لأوامرنا جريا وراء شهوات أنفسهم " **فَجَاءهَا بَأْسُنَا** " اى فأتاها عقابها شديدا لا يحتمل و زكان انتقامنا منهم لا مرد له ولا نجاة منه

([1])سورة الذاريات آية : 55 .

([2]) سورة ابراهيم آية : 5 - سبق الاشارة الى هذه الايام السبعة بشىء من التفصيل على الصفحة رقم 1915 من الجزء السابع

سواء كان " **بَيَاتا** " وهم نائمون ليلا " **أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ** " فى قيلولة النهار , وهو الرقود فى الظهيرة للاستراحة فى نصف النهار سواء بنوم أو بغير نوم .

قوله تعالى " **فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ** " أى فلم يكن قولهم عند حلول الهلاك ونزول البلاء واعذاب " إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا " أى وأحاط بهم احاطة لامهرب لهم منه ولا من ضرره الاكيد , ودماره الخطير " **إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِين** " أى لم يجدوا مفر من الاعتراف بظلمهم لانفسهم ومخالفتهم لامر ربهم فيقولون أنا نستحق ما نزل بنا من عذاب لما وقع منا من ظلم ومخالفة .

قوله تعالى " **فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ** " أى فوعزتنا وجلال قدرنا , لابد ان نسأل الأمم التى ارسلنا اليها الرسل وأنزلنا عليهم الكتب , ماذا فعلوا برسلهم , هل أطاعوهم وناصروهم ام عصوهم وحاربوهم , وماذا فعلوا بكتبهم , هل حفظوها وبلغوها بعد ان عملوا بها , أم أهملوها ولم يبلغوها , " **وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ** " أى وكذلك نسأل المرسلين عما بلغوه لأممهم , وعن كيفية أستقبالهم لرسالاتهم , هل آمنوا بهم وأطاعوهم , أم كذبوهم وعصوهم.

وفى هذه الآيات اشارات ثلاث : اولها تخبرنا عن بأس الله الشديد الذى ينزله جل جلاله بكل من خالفه وعصاه , وكيف جعل نزوله بهم أثناء أطمئنانهم فى حصون بيوتهم بالليل أو بقيلولة الظهيرة ليتضاعف هوله وشدته.

والاشارة الثانية تبين لنا مدى ظلم الناس لأنفسهم ولغيرهم أذا أطمأنوا على دوام أمنهم وسلطانهم ووثقوا فى قوتهم , حتى اذا وقع بهم من الكوارث والكروب ما يزعزع هذا الاطمئنان , أنهاروا ماديا ومعنويا واعترفوا بأنهم كانوا مذنبين ظالمين .

أما الاشارة الثالثة فتوضح حقيقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ولا من أى جهة , ومع ذلك فهى دائما غائبة عن وعى الناس بسبب النسيان والغفلة , وهذه الحقيقة هى أن الله تعالى لا يسأل عما بفعل لأنه جل جلاله مالك كل شىء , وفوق كل شىء , وليس كمثله شىء وهو لا حدود له , أما الناس فهم يسألون لانهم مخلوقون قد وضع لهم خالقهم حدودا ونهاهم عن عديها فقال تعالى " **تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** " ([1]) وقال جل شأنه " **الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** " ([2]) ولهذا سيسالهم الله جميعا , المرسل اليهم قبل المرسلين , أسأل الله تعالى أن يثبتنى وأياكم على الحق المبين فى الحياة الدنيا ويوم السؤال فى الآخرة أنه رب قريب مجيب .

قوله تعالى " **فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ** " (7) .

اى ولنخبرهم بالحقائق التى وقعت منهم , والجرائم التى ارتكبوها , والكفر بالله الذى عدلوا به عن الايمان , وهذا القصص نقصه عليهم بعلم منا فانا لا نجهل تلك الحقائق ولا أخفى منها .

" **وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ** " أى لم نكن نجهل ولا بخفى علينا عملهم الذى كانوا يعلمونه مستترين عن الناس ظاهرين لنا أين ما كانوا لانى معهم أينما كانوا .

ومن فقه قوله تعالى " **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ** " ([3]) وتدبرها فى كل عمل من أعمال الخير والشر صغرت فى عينه قرباته وعظمت فى قلبه هفواته لا لأن الشريعة عظمتها وكبرتها بل لأنه واجه بها من هو معه أينما كان

([1]) سورة البقرة آية : 229 .
([2]) سورة التوبة آية :97 .
([3]) سورة الحديد آية : 4 .

قوله تعالى " **وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "(8) .**

ان الله تعالى لايخفى عليه شىء لأنه سبحانه أعلم بكل شىء , وانما كان السؤال وقص أخبارهم عليهم , والوزن لتقوم الحجة أنه سبحانه هو الذى وضع الأسباب وأقامها لحكم بعضها علم , وبعضها لم يعلم , وهو علام الغيوب , والوزن يوم القيامة بميزان له كفتان , ولسان كل كفة أوسع مما بين المشرق والمغرب , فتوضع الحسنات فى كفة , والسيئات فى كفة والموزون حقائق الاعمال , لابد ان يكون الوزن ملكوتيا لا ملكيا , فهو كما يعلمه الله , وعلينا أن نسلم لله تسليما فى خبره .

وقوله " **فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ** " أى موازين حسناته فجعلها موازين لكل واحد , وجائز ان يكون للجميع - فان كان المراد لكل واحد كانت الموازين بحسب الجوارح , فلأعمال الاذن ميزان , وللعين ميزان وللبطن ميزان , وللفرج ميزان , وللاطراف ميزان , وللقلب ميزان فتكون موازين .

وجائز أن يكون لكل واحد ميزان , فان الابرار لهم موازين خاصة توزن بها أعمالهم , والاخيار لهم موازين حاصة , وللعامة موازين خاصة , فان الله لايزن العامة بموازين الأخيار .

وكيف يزن أعمال من مقصدهم الى وجه الله العلى العظيم بأعمال من مقصدهم الجنة قوله " **فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** " والمفلح هو الذى بلغ كل مقاصده , فان طلب الحظوة بربه نالها , وان طلب الرضوان الأكبر ناله .

وقد ورد أن رجلا تعطى له سجلات أعماله , واذا بها تسعة وتسعون سجلا كلها سيئات , فيعتقد الرجل أنه ذاهب الى النار ولا محالة , ويريد أن يذهب الى النار , فيقول الله له قف عبدى فانى حكم عدل , وأن لك عملا عندى , فيقول ما هو العمل باربى بعد تسع وتسعين سجلا من الخطايا , فيقول الله أعطوا عبدى ماله فيخرجون له بطاقة من تحت العرش صغيرة جدا , ويقول الله ضعوها فى ميزان حسناته فيقول العبد وما تلك البطاقة فى جانب هذه السيئات , فتوضع البطاقة واذا فيها أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله , فيضعها الملائكة فتثقل البطاقة حتى تطيح بالسجلات التسع وتسعين , فيعجب الرجل من هذا ويؤمر به الى الجنة فيفرح ويقول الحمد لله الذى وفقنى لقول لا اله إلا الله .

قوله تعالى " **وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ (9) .**

تأويل هذه الآية الشريفة أن من خفت موازين حسناته وثقلت موازين سيئاته " **فَأُوْلَـئِكَ** " , واسم الاشارة عائد الى من خفت موازينه , والفاء هنا رابطة لجواب الشرط " **الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم** " أى أهلكوها لأنهم فى حياتهم الدنيا أطاعوا أهواءهم ومتعوا أنفسهم بما تهوى غير مراقبين جلال الله تعالى وشديد عقوبته " **بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ** " أى بسبب كونهم ظلموا أنفسهم بتكذيبهم بآياتنا .

قوله تعالى " **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ"(10) .**

مكنا أى جعلنا لكم فيها مكانا يؤويكم , وجائز أن يكون مكنا من التمكين أى جعلناكم متمكنين فى الأرض تتصرفون فيها بما شئتم فزللناها لكم تفضلا منا عليكم .

" **وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ** " أى وجعلنا لكم فيها زروعا وحقولا ومواد للصناعات لنيل ضرورياتكم وكمالياتكم مدة حياتكم فيها , وتلك النعم المتاحة منا توجب عليكم الشكر الكثير والحمد الجزيل لمن تفضل بها عليكم من غير حاجة اليكم .

" **قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** " أى وقليل شكركم , مع أن الواجب عليكم أن تديموا الشكر على منن لا تحصى ونعم لاتستقصى , وأن من تلك النعم المفاضة عليكم منه سبحانه نعمة لو فقدها الانسان نفسا لهلك , وهى الهواء , مع أن الانسان يأحذ فى الدقيقة الواحدة سبعين نفسا فيمد كل نفس الحياة الطيبة , فلو أنكم اعتبرتم بهذا العجز عن شكر الله تعالى على نفس واحد طول الدهر ماذلك إلا لأن الانسان كفور بنعمة الله تعالى , فأنه لجهله لايرى لله عليه نعمة إلا المال مع أن نفسا واحدا لو أنقطع عنه لبذل لتحصيله كل مالديه حتى نفسه التى بين جنبيه , بل ولو أن ريحا صغيرة حبست فى بطنه وطلب من لاخراجها كل مافى يديه لهان عليه , ولكن قتل الانسان ماأكفره .

قوله تعالى " **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ** " **(11) .**

تأول بعض المفسرين هذه الآية الشريفة بمالا يطابق ظاهرها فقال بعضهم : خلقناكم آدم , ثم صورناكم أدم ثم قلنا للملائكة أسجدوا لآدم .

وقال بعضهم : غير ذلك مما يقرب من , وتأويلها أن الله تعالى يخاطب حقائقنا المعلومة له الموجودة لديه قبل أبرازنا في الاعيان الظاهرة فيقول سبحانه وتعالى : " **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ** " يعنى من العدم حيث لم تكونوا شيئا " **ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ** " هذا أيضا خطاب من الله تعالى لنا , يخاطب حقائقنا فى البدء قبل النشأة الاولى , أى ثم بعد أن خلقناكم فى يوم من أيامنا صورناكم فى أحسن تقويم فخلقنا أصلكم الأول , يعنى سبحانه " **آدَمَ** " فى يوم من أيامنا ثم أتممنا خلقه وارزنا إنسانا سويا , ثم بعد ذلك كله نفخنا فيه من روحنا وقلنا للملائكة اسجدوا لآدم , فحقائقنا قبل إبرازنا فى هذا الكون المحسوس كانت معلومة ومخاطبة .

وفى هذه الآية دليل عن أن الله تعالى أحاط بنا علما قبل خلقنا وتصويرنا وقبل سجود الملائكة لآدم , وأبرزنا جلا جلاله فى كل من أوطاننا بقدرة وحكمة , فالذى علم بنا وخاطبنا قبل وجودنا فى هذا الكون يعلم بنا ويقدر علينا وله فينا التصرف المطلق ,يهدى من يشاء ويضل من يشاء , وما على العبد المؤمن إلا أن يديم مراقبة الله تعالى وشكره , والإخلاص فى عبوديته , وهذه الآية أيضا راح طهور لمن زكت نفوسهم , تشهد أهل الإيمان أسرار قدرة الله القادر و غيوب حكمة الحكيم جل جلاله .

قوله تعالى " **اسْجُدُواْ لآدَمَ** " تأول بعض المفسرين السجود بالتحية والاحترام , ولو كان ذلك كذلك لقال حيوا آدم بالسجود ولكنه قال " **اسْجُدُواْ لآدَمَ** " فالسجود بحسب الأمر لآدم , ولما كان السجود فى الحقيقة هو الانقياد والطاعة و إنما جعل وضع الوجه على التراب فيه حجة للسمع والطاعة للأمر , وحجة الساجد على أنه سمع الأمر و أطاعه .

ولك فى تأويل السجود لآدم معنيان , الأولى أن الله تعالى سخر ملائكة السموات فقط لآدم وذريته , فضلا منه سبحانه قال تعالى " **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ** " [1]ومعنى "**ملك**" رسالة ,مأخوذ من "**ألك** " أو " **لأك**"أى أرسل رسالة , فاصل " **ملك** "مالك أو ملاك .

والذين سجدوا لآدم لما شهدوا فيه معنى صفات الحق جل جلاله التى بها عرفوه سبحانه وتمثلته قواهم الملكية فسجدوا لربهم الظاهر بمعانى صفاته فى آدم .

([1]) سورة الجاثية آية : 13 .

قوله تعالى " **فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ** " أى فسمع الملائكة وأطاعوا وانقادوا لأمر الله سبحانه وخروا سجدا جميعا , فان أمره سبحانه كما تقدم ابتلاء منه لخلقه , ولكنه إذا أمر سبحانه بتعظيم حقيقة , ما وجب علينا إلا الانقياد لأمره فنسمع ونطيع الأمر , فإذا نحن أطعنا أكرمنا الله تعالى بانقيادنا لأمره بانبلاج أنوار خواص تلك الحقيقة التى أمرنا بتعظيمها – فان بعض المطيعين يقومون بتنفيذ الأمر مع جهلهم بحكمة الأمر , وقد أثنى الله على أهل الإيمان بالغيب , ثم بين سبحانه لهم أن ينظروا بعقولهم ويبحثوا بحث مستفهم راغب فى تحصيل العلم ليفوز بكشف أسرار معلومهم قال تعالى " **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ** " ([1]) " **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** " ([2]) , " **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** " ([3]) , وكثيرا غير ذلك , وقد ذكر سبحانه أمثال هذه الآيات الشريفة مكررة حثا على تحصيل العلم وبحثا عن كشف الحقائق , وهذا علم له وسائل خاصة أعظمها وأجلها العمل بما تعلمه الإنسان من أحكام الشريعة , قال ε " **من عمل بما ورثه الله ما لم يعلم**" وقال تعالى " **وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ** " ([4]) .

ظهر من هذا أن الواجب علينا التسليم لرسول الله ε من غير أن نطلبه بدليل أو برهان على ما يخبرنا به حتى تزكو نفوسنا وتتطهر من ملابساتها للعناصر الجسمانية , فتتأهل لتتلقى أسرار الغيب المصون , فأن فى قلب العالم علوما ليس لها نظائر ولا أشياء فى العالم المحسوس , والعقول لا تدرك حقيقة إلا إذا تمثلتها النفوس , وحقيقة ليس لها مثال ولا مثلا وليس للعالم قدرة على أن يمثلها لمن لم يرتاضوا بمبادئ العلوم , بل لم يسلموا للعلماء الربانيين , لذلك فأن الله أثنى على أهل التسليم الذين صدقوا بالغيب وسلموا لرسول الله ε تسليما .

قوله تعالى **"قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ " (12)**

بعد أن قال تعالى " **إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ** " إبليس هذا وهو الشيطان " **إِبْلِيس**" لأنه ابلس أى أخلد إلى الأرض , وشيطان لأنه أما أن يكون من "**شاط** " أو من "**شطن**" فان فى شاط معنى الالتهاب , وشطن بمعنى بعد , وإبليس هذا كان يطمع أن يكون خليفة الله فى الأرض , فأن خليفة الله فى الأرض سيد أهل السماء لأنها ليس فيها من يعصى الله تعالى , فأن الكفر بالله كائن فى الأرض والخليفة فيها قائم مقام ربه فى تصريف الأمور ورفع الظلم ومحاربة الكفر و إصلاح المجتمعات , وكانت هذه طلبة إبليس , فلما قال الله تعالى " **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** " ([5]) أخذ منه الحسد كل مأخذ و أغرى الملائكة على أن يقولون ما قالوا مما أخبرنا الله به مخبرا عنهم " **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء** " الخ .. حتى قال الله لهم " **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** " فسلموا لله تعالى فى خبره وأراد الله تعالى أن يظهر سر قوله " **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** " فكون آدم من العناصر السلفية ثم جمله بمعانى صفاته الربانية فشهد الملائكة فى آدم ساطعة نور من قوله تعالى " **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** " وسجدوا جميعا إلا إبليس هذا فأنه فسق عن أمر ربه بالسبب الذى بيناه من أنه كان يطمع أن يكون خليفة لربه فى الأرض , ولكن الله سبحانه يختص برحمته من يشاء

([1]) سورة الزمر آية :21 .
([2]) سورة الحجر آية :75 .
([3]) سورة الحشر آية : 2 .
([4]) سورة البقرة آية : 282 .
([5])سورة البقرة آية : 30 .

, فكان إبليس أول من حسد , ولذلك فالحسد أشر أمراض الأخلاق وكفاه أنه خلق إبليس , وقد بلغ الحسد منه لآدم ولذريته حتى حصل منه كما سيبين الله لنا وما بين فى هذه الآيات وما بينه من قبل .

" **لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ** " أى لم يكن ممن سجدوا لما بينت لك من أنه من الجن الذين هم من النار ذات النور لا من النور الذى لا نار فيه

" **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** " " **ما** " هنا استفهامية والمعنى : أى شىء منعك عن السجود وأن تقول "**لا أسجد** " فحذف "**تقول** " كما هى عادة القرآن فى حذف ما يعلم , فأنا لو فهمنا الآية كما فسرها بعض المفسرين فى أن " **لا** " زائدة صلة أو أنها لتأكيد الخبر , نكون قد تكلفنا مالا يلزم فى كلام الله تعالى ولا ينبغى لنا أن نقول أن حرفا زائدا فى القرآن أبدا , لأن القرآن كلام الله القويم , ولكل حرف منه معنى خاص تظهر أسراره لاولى الألباب , وما علينا إلا أن نسلم لله بعد فهم الحقائق التى يريدها الله تعالى , فالله تعالى يشنع على إبليس ويوبخه لأنه امتنع عن السجود , وإذا خفيت علينا الحكمة سلمناها لله تعالى ولا يجب علينا أن نتأولها بقدر عقولنا ولا بقدر أساليبنا فى العبارات " **إِذْ أَمَرْتُكَ** " أى حين أمرتك بالسجود لآدم , الست تؤمى أنى ربك بما قام لديك من الحجج , وأنى على عظيم عن أن أحس وأمس بل وعن الاحتياج إلى مخلوق من خلقى , وما بقى من دلائل تعظيم عبادى لى إلا أن يطيعوا أمرى ويسارعوا إلى تنفيذ حكمى , وقد أمرتك أمرا ينبغى أن يطاع لكمال العبودية فما منعك .

فأجاب الله تعالى مستدلا بالقياس , فكان أول من فتح هذا الباب إبليس واقفا عندما يدركه وهو عاجز عن أن يدرك وهو عاجز عن أن يدرك سر إيجاده , فقال " **خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ** " وعلى زعمه النار لطيفة ومنيرة , وما فقه " **وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** "والطين على قدر عناده سافل وردىء , وجهل أعاذنا الله منه أن الله تعالى يرفع أسفل الحقائق حتى يسوده على ارفعها , وأن الطين مجمل بالتواضع والحلم والسكينة وهو أنفع للخلق من النار , ولن تحصل منه مضر أبدا بل كله خير , فمنه الإنبات ومنه رفع المنازل ومنه مما أدركه فيه أهل العلم بالله تعالى , ولو لم يكن فيه ولا مزية ولكن والله منحه الأفضلية وجعل منه من سخر لهم الملك والملكوت ولأجلهم خلق الكون وهم الأنبياء وورثتهم والأولياء والصديقون والشهداء وتابعوهم إلى يوم القيامة .

قوله تعالى " **قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**" **(13)** .

" **الفاء** " هنا للفصيحة وهى التى أفصحت عن جواب شرط مقدر منه , إذا ظهرت حقيقتك الخبيثة العنادية فاهبط منها أى أبعد مطرودا هاويا إلى السفل , وهنا ثبي أن تخصيص عموم الصريح بالقياس مذموم عند الله تعالى , فانه تعالى ذم إبليس وطرده من رحمته لأنه خصص عموم الصريح بالقياس الذى أتى به لأنه قال " **خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ** " والنار جسم نورانى , " **وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** " , والطين جسم ظلمانى , فنتج أن النار خير من الطين , وجائز أن تكون " **الفاء** " فى قوله " **فَاهْبِطْ** " للترتيب , " **مِنْهَا** " أى من جنة عدن أو من السماء محل الأطهار.

قوله تعالى : " **فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا** " معنى هذه الآية أن الله اهبطه إلى سافلين لأنه حكم بالخيرية على آدم تكبرا بعنصره النارى على عنصر التراب ونسى أن الحكم لله بيده الفضل يؤتيه لمن يشاء سبحانه , وليس الفضل بالجواهر التى كون منها الشخص وإنما الفضل بيده سبحانه , وما دعاه إلى هذا قاتله الله إلا حسده لآدم , وهذه من أسرار قوله تعالى للملائكة" **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** "

" **فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِين** " ومعنى هذه الآية أن الله تعالى أمره بالخروج من جنة عدن أو من السماء , وأخبره الله تعالى أنه " **مِنَ الصَّاغِرِين** " أهل الصغار والخزى والذل .

قوله تعالى **"قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ" (14) .**

قوله تعالى " قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ" (15) .

قال استئناف " **أَنظِرْنِي** " أى أرجئنى حيا بين ظهرانيهم إلى يوم يبعثون أى إلى النفخة الثانية , قال تعالى " **ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ** " قال " **إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ** " أى قال استئناف أيضا " **وان** " لتوكيد الخبر " **والكاف**" كناية عن إبليس من المؤخرين إلى يوم يبعثون لأنه سبق فى علمه تأخير موتك .

قوله تعالى **"قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ "(16).**

اثبت الغواية من الله وهو مذهب الجبرية , وهى دليل على علمه , والباء هنا للقسم ويكون المقسم به فعل الله غواية إبليس أو للسببيه , وتكون المعنى إغوائك و " **لأَقْعُدَنَّ** " أما جواب القسم أو السبب عن السبب "**وأَقْعُدَنَّ** " كناية عن صده عن سبيل الله فكان كالحجر فى طريق الماء فلا انتفع ولا تركها لمن أنتفع بها .

" **صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** " هو القرآن المجيد , فيدعوهم إلى تأويله بالقياس كما فعل , وعلى فهمه على خلاف ما أراد الله , وعلى أن يجعلوه أغانى للطرب والأنس فى المجتمعات , وعلى أن يهجروا العمل به وعلى أن يجادلوا فيه , وغير ذلك .

قوله تعالى : **"ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ" (17).**

أما إتيانه لهم من بين أيديهم فوسوسته لهم حتى يحجبهم عن التفكير فى آيات الله المنبلجة , أو ينسيهم الآخرة التى هى أمامهم , أو يوقعهم فى الضلال بالنسبة للأعمال المستقبلة وغير ذلك " **وَمِنْ خَلْفِهِمْ** " أن ينسيهم شكر الله على ما اسبغ عليهم من النعم من قبل , أو ينسيهم ما أخذه الله ورسوله ε عليهم من العهود " **وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ** " أى من الجهة التى هى محل عمل الحسنات " **وَعَن شَمَآئِلِهِمْ** " أى من الجهة التى هى محل السيئات .

قوله تعالى " **وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** " - هذه الآية خبر من الله تعالى عن كلام إبليس مع ربه جل جلاله يقول ولا تجد اكثر بنى آدم شاكرين لك ياربى ما تفضلت به على أبيهم آدم من صوغك له بيديك ومن نفخك فيه روحا ومن سجود الملائكة له وإسكانك له فى الجنة وما أكرمت به بنيه من تسخير ملكك وملكوتك لهم وإمدادهم بما لابد منه , وأكثر من النعم المقضية وجوب الشكر .

وإبليس فى هذا بعد أن كان أول حاسد لآدم وبنيه , كان أول من فتح باب الغيبة و النميمة والسعى بين ربنا وبيننا يريد بذلك إلقاء العداوة والبغضاء من ربنا سبحانه وتعالى لنا , والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون , وكذلك فان إبليس لا يعلم الغيب الذى أخفاه الله لآدم وذريته من سعة التوبة والمغفرة , ومن تبديل السيئات حسنات فقاتله الله من عدو وأعذنا منه من وسواس خناس , وأشهدنا الله طرق وسوسته لنا .

قوله تعالى : " **قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ**" (18) .

قال استئناف و" **اخْرُجْ** " , أمر بالطرد , " **مِنْهَا** " تقدم الكلام عليها "**مَذْؤُوماً** " أى – مذموما مجللا بالخزى والصغار والخذلان , و قرئت "**ذَؤُوماً بالواو** " بدل الهمزة " **مَّدْحُوراً** " أى

مبعدا مطرودا – فان دحره أى أبعده وطرده " **لَّمَن تَبِعَكَ**" اللام للقسم ومن قتدى بك وأهتدى بهديك , وسلك سبيل الضلالة معك من بنى آدم .

" **لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ** " خبر من الله تعالى أن يعاقب من أطاعوا إبليس بالخلود فى نار جهنم لأنه يقول سبحانه " **لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ** " ومعنى ملئها أى أنها بعد أن تملاء يغلقها عليهم كما يملاء الإنسان خزائنه ويغلقها على ما فيها , والمعنى ينتقم من كل متبع لإبليس وهم أهل الكفر بالله والمنافقون والملاحد وهؤلاء يستحقون الخلود فى نار جزاء من الله عدلا .

قوله تعالى " **وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** " (19).

هذه الآية دلت بصريح لفظها أن الجنة فى ذلك الوقت ليست مقرا لآدم يخلد فيها بدليل قوله " **اسْكُنْ** " فأن أسكن تدل على التحول والانتقال , فكان هذا الخطاب أكبر انتقام من إبليس الذى أحرق قلبه الحسد و والجنة هى بساتين ملتف شجرها جمعت أنواع النعيم والمشتهيات لا يرى من هو خارجها لالتفاف أغصانها وأوراقها .

" **فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا** " أمر من الله تعالى لهما بأن ينتفعا بكل نعيم الجنة فتكون لهما المشيئة المطلقة , وكذلك أهل الجنة تكون لهم المشيئة المطلقة إذا وصلوها . قال تعالى " **لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فيها**" وهذا هو الكمال الإنسانى الذى أعده الله لأهل محبته .

قوله تعالى " **وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ** " بلاء خفى ومحنة عجيبة , فان الأمر والنهى من الله تعالى حقيقة الابتلاء منه لعباده , وبقدر حسن الاتباع والإخلاص فى النية والصدق فى العمل تكون للإنسان المشيئة يوم القيامة فى فردوس الله الأعلى حيث يكون عمار السموات من الأملاك مسخرين لمن مات على الإيمان فى دار النعيم المقيم الأبدى .

ومن خالف الأمر أو النهى حاق به العذاب فى الآخرة و الخذى والذل فى الدنيا , وما أمر الله ونهى إلا ليميز الخبيث من الطيب كما سبق فى علمه جل جلاله ولولا الأمر والنهى لكان الناس فى فترة الناجين قال تعالى " **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** " ([1]) وهذا النهى كان سبب بلاء آدم وإهباطه من الجنة وعيشته فى الأرض فى كد وعناء وهموم وغموم وأسقام وبلاء بعد إن كان فى النعيم مطلق المشيئة والإرادة .

وانى لأعجب من مسلم يعتقد أن تلك الدار الدنيا دار الفناء والبلاء ودار المسارعة إلى محاب الله ومراضيه , أو الهبوط إلى دار العذاب الأليم و ويسمع أخبار الجنة ويعتقد أنها حق و ثم يطمع فى الدنيا أو يغتر بها وبزخرفها , ولكن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء واختلف العلماء فى الشجرة التى نهى الله آدم وقد تقدم اكلام عليها فى سورة البقرة .

وهنا أزيدك أيها الطالب علما زادنا الله وإياك فقها فى كلامه القويم ومنحنى الله و إياك التسليم

أن نهى الله تعالى آدم عن أكل الشجرة لابد وأن تكون تلك الشجرة لها خصوصية تشير إلى معنيين عظيمين :

الأول : تعظيم الناهى للعبد عما نهى عنه .

والثانى : أن تكون الشجرة مشيرة إلى غيب من غيوب التوحيد وإلا فالله تعالى يمنح آدم المشيئة فى أن يأكل من نعيم الجنة كيف شاء ومتى شاء وينهاه عن السنبلة أو عن الشجرة – شجرة

([1])سورة الإسراء آية : 15 .

التين – كليا , نعتقد أنه سبحانه يأمر وينهى بما شاء لا معقب لحكمه , لكنا نجله وننزهه عن أن يأمر أو ينهى لغير حكمة عالية لا يمكن أن تدرك إلا لأهل العلم بالله تعالى , فانه أمر الملائكة بالسجود لآدم لحكمه عالية جدا وهى قوله تعالى " **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي** " ([1]) وقوله " **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**"([2]) فكشف لنا الحكمة جلية أن الملائكة ما سجدوا لآدم إلا بعد أن خلقه بيديه وسواه جل جلاله على أحسن التقويم ونفخ فيه من روحه , وكذلك فانه ما نهاه عن أن يقرب هذه الشجرة إلا لحكمة عالية جدا وقربه من الشجرة له معنى من المعانى التى يعلمها أهل العلم بالله , ولا يبعد أن يكون المراد من الشجرة هى شجرة الله تعالى إلى رأسها جهة العرش وفروعها مدلاة جهة الأرض كسدرة المنتهى , التى رأسها مغروسة فى العرش وفروعها مدلاة على الجنة بخلاف شجرنا فان رءوسها مغروسة فى الطين وفروعها مرتفعة إلى العلو , وشجرة الله هى التى غرسها بيديه فى جنة عدن , بعد أن صاغها بيديه وخلقها فى أحسن تقويم ونفخ فيها من روحه وأسجد لها ملائكته ونقلها فى جنة عدن

وهنا يفهم من فقه الإشارة , وإنما هو فهم يهبه الله لمن يشاء من خلقه , ومعنى قره منها أن ينسى الله تعالى فينسيه الله نفسه , ومعنى أن الله تعالى هو الذى خلق الإنسان بيديه من طين أولا , ثم خلقه من ماء مهين ثانيا وصوره بنفسه – قال سبحانه " **هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ** " فالإنسان هو شجرة الله تعالى .

قوله تعالى " **فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** " أى من الذين ظلموا أنفسهم بمخالفتهم نهى الله تعالى , ومن هنا فهمنا أن القرآن كما قال ε لكل حرف منه ظهر وبطن , ولكل حد ومطلع فظاهره لأهل الظاهر وباطنه لأهل الإيمان الكامل , وحده لأهل الشهود فى مقامات الإحسان , ومطلعه لأهل الوجود الحق فى مقامات اليقين , ولا يعارض مذهب مذهبا , رزقنا الله تعالى العلم به وبحكمة ما أوجده فى كونه أنه مجيب الدعاء .

قوله تعالى " **فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** "(20) .

الوسوسة هى إلقاء ما فيه مضرة إلى الغير و وأما إلقاء ما فيه خير للأرواح فيسمى وحيا , وما خير للأشباح يسمى وعظا , وكل ما يلقيه إبليس فهو وسوسة لانه لا يلقى إلا ما هو شر , وسوس على وزن " **وعوع الذئب** " " **وولولت المرأة** " يخبرنا الله تعالى أن آدم بعد أن أسكنه الله الجنة هو وزوجة كبر الأمر على عدو الله إبليس ودعاه الحسد وخبث الطبع أن يوقع آدم فيها يبعده عن ربه كما بعد هو , لانه يعلم أو ربنا تنزه وتعالى غنى عنهم وعن الخلق غيور لأمره ونهيه , وكان عدو الله محجورا عليه أن يدخل الجنة فتقرب من الحية التى كانت خازنة الجنة ووقف يبكى جوارها حتى أحزنها فسألته , فقال لها أن آدم وحواء لهما عندى نصيحة وأحب أن تدخلينى فى فمك وتدخلين الجنة حتى أبلغهما مالهما عندى فرحمته ووضعته فى فمها ودخلت به الجنة , فوقف يبكى جوار حواء حتى أحزنها , فسألته قائلة ما بالك , فقال أبكى عليكما تموتان وتفارقان هذا النعيم المقيم , فسألته وما يبقى فيه فقال أن تأكلا من تلك الشجرة , فتقدمت إلى آدم فأخبرته فأنكر فأقسم لهما بالله أنه لمن الناصحين , وهذا الذى وسوس به إبليس إلى آدم وحواء وهو خبره لهما أنهما يموتان ويفارقان هذا النعيم المقيم , فأكلا منها .

([1]) سورة الحجر آية : 29 .

([2]) سورة ص آية : 75 .

ومعنى هذه الآية الشريفة وهى قوله تعالى " **فَوَسْوَسَ لَهُمَا** " أى وسوس إليهما , وإنما أتى " **باللام** " هنا لحكمة فى أن الوسوسة إذا لم تقبل كان متعلق الفعل " **بالى** " وإذا قبلت كان " **باللام**" فالإشارة إلى أنها قبلت لاعتقادهما أن النصيحة نافعة لهما فقبلا منه وأكلا من الشجرة .

وقوله تعالى " **لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا** " هذه الآية الشريفة وما قبلها تقدم الكلام عليه فى سورة البقرة , وإنما نتكلم عليها هنا ما لم نبينه من قبل .

جمل الله تعالى آدم بعد أن نفخ فيه من روحه بجمال جعله مظهرا لانبلاج معانى صفاته سبحانه وتعالى , وعلمه الأسماء كلها وكان يشهد معانى الصفات منبلجة فى هيكلهما الذى كان رقا لتلك الأسرار , وكانت تلك الأنوار لا تفارقه لأنه حاضر القلب شديد المراقبة تمثلا لأنوار معانى الصفات وأكل من الشجرة "**اى نسى جمال الله الظاهر بمعناه فى هيكله** " " **نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ** " ([1])فنسى حقيقته التى بعلمه بها يجمله الله تعالى بهذا الجمال , فلما نسى سلب ما كان منحه الله له تفضلا منه جل جلاله , وتسلطت عليه , قوى النفوس الشهوانية والغضبية والعنادية فشعر بقضاء الحاجة ونظر فرأى ما لم يكن يره من سوآته , ولديها حمل بعد أن كان محمولا , فاخذته الحيرة وراح يطوف فى بساتين الجنة ويستر عوراته حياء من الله تعالى , فكانت وسوسة إبليس لآدم طعما فى أن يأكل من الشجرة فيسلب منه هذا النور فلا يكون أهلا لما أهله الله له من هذا النعيم المقيم فى جوار الله تعالى , كذلك يخف عن إبليس ثقل حمل الحسد والعداوة والبغضاء بسلب النعمة عن آدم أعذنا الله تعالى من أهل الكيد .

قوله تعالى " **لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا** " الذى كان يستر سوءاتهما هو نور استجلاء معانى الصفات كما تقدم , وقال بعض المفسرين هو غشاء من نوع القطن , وقال بعضهم هو نور أخفاها وكل ذلك جائز .

قوله تعالى " **وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**" "**قَالَ** " استئناف , والآية بعدها ما وسوس به إبليس لهما , والمعنى ما نهاكما ربكما عن تلكما الشجرة ألا كراهية أن تكونا ملكين بكسر اللام , وفى رواية أخرى ملكين بفتح اللام – فالثانية – أن تكونا من الملائكة الخالدين المنعمين بالطهر والصفاء , وفى الأولى من الملوك أى تفوزون بملك الجنة لكم فيها ما تشاءون إلى الأبد , أو كراهة أن تكونا من الخالدين الذين لا يموتون أبدا , فانزعج آدم وأن لم يذكر هنا انزعاجه , إلا أننا نستدل على انزعاجه بحلف إبليس له , فان المقسم لا يقسم إلا إذا رأى شكا أو ربية فى المخاطب "**وَقَاسَمَهُمَا** " أى أقسم لهما , وأن كانت المفاعلة تقتضى العمل من جهتين يكون إبليس اقسم وآدم قبل فكأنه أقسم أيضا وصح الخبر من الله تعالى بقوله "**وَقَاسَمَهُمَا** " .

قوله تعالى " **وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ** " (21) .

اى أنه لعنه الله أقسم مؤيدا نصحه لهما باليمين الفاجرة ولم يكن آدم يعلم أن أحدا يقسم بالله كاذبا , وكيف يكون ذلك وهو من عالم الطهر والصفاء .

ولا تخلو وسوسة إبليس لآدم وزوجه وقبولهما منه من حكمة يتذوقها أهل العلم بالله تعالى , وهنا نعلم أن الله تعالى أمرهما أن لا بقربان تلكما الشجرة , فأكلا منها تنفيذا لقدر الله تعالى وإظهارا لما يعلمه سبحانه وتعالى وقياما بحجته على الملائكة الذين قالوا " **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا** " إلى حيث اهبطه الله تعالى إلى الأرض كما يأتى وخلق من ذريته رجالا يقومون لله بأجمل الأعمال

([1]) سورة الحشر آية :19 .

والطاعات متبرئين من حولهم وقوتهم يبكون شوقا إلى الله , يشتاقون إلى الله جل جلاله مع أن الملائكة الأطهار قالوا فى مواجهة ربنا جل جلاله " **وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** " فأثبتوا لأنفسهم التسبيح والتقديس وهذا لا يشهده الأخيار من ذرية آدم , فسبحان من أخفى جماله فى جلاله وحير العقول فى أسرار قدرته وحكمة أفعاله.

قوله تعالى " **فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ** "(22) .

أى أعد نفسه مظهر الدال على الخير , ذخرف القول غرور بما أقسم لهما ليخدعهما , فلما ذاقا الشجرة نسيا أنفسهما لأنهما نسيا نهى الله تعالى بغرور العدو و فانفصلا عن الاستقرار فى مشهد التوحيد العلى انفصالا شهدا به وجودهما فبدت لهما سوء آتهما – أى ظهر لهما احتياجهما إلى ما لابد منه للإنسان من قضاء حاجة وستر عورة – وفى ذلك مالا يطيقه إنسان " " أى أسرعا يختطفان ورق الجنة ليسترا به عورتهما , وكان آدم كالنخلة ثائر الشعر , فقابلته شجرة أمسكت بشعره فقال "**اتركيني** " فقالت "**لا أتركك** " ولديها ناداه ربه إلى أين نفر منى يا آدم فقال " **استحياء منك يا رب** " عندما أمسكت به الشجرة ناداه ربه سبحانه مذكرا له عهده ونهيه قائلا سبحانه " **أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ** " ولديه سأله من أمرك بالأكل منها فقال "**أمرتنى حواء**" وقالت حواء "**أمرتنى الحية**" فقال للحية " **من أمرك بأن تأمرى حواء بالأكل منها** " فقالت " **أمرنى إبليس**" وقدر جل جلاله أن يهبط آدم من الجنة , وقدر سبحانه أن تدمى حواء من كل شهر مرة كما أدمت الشجرة , وقدر سبحانه أن يقطع قوائم الحية حتى تمشى على بطنها , ولعن إبليس وطرده .

قوله تعالى " **قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**" (23) .

هذه الآية الشريفة هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه , فأن آدم سأل الله التوبة فأعطاها إياه , وإبليس سأل النظرة فأعطاها إياه , وتفضل جل جلاله فألقى الكلمات على آدم فتلقاها منه سبحانه وهى قوله " **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا** " بمخالفتنا نهيك , وأن أنت لم تغفر لنا فتستر مخالفتنا لنهيك بستر مغفرتك , وترحمنا أى تبدل تلك السيئة الكبرى برحمتك حسنة بما وفقتنا له من التوبة لنكو نن من الخاسرين , أى الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة , وهذا الدعاء إذا دعا به المذنب و اجدا مرارة وانكسار قلبه بين يدى ربه غفر الله له , فأن آدم تلقاه من ربه , والمسلم المذنب تلقاه عن أبيه آدم .

قوله تعالى " **قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** "(24) .

الهبوط هو السقوط من علو إلى أسفل , ومعنى هذه الآية الشريفة أن آدم وحواء تقع بينهما العداوة وبين إبليس والحية , فلا يذكر إبليس على لسان مسلم إلا لعنه , ولا يرى أنسانا الحية إلا صفع رأسها بنعله .

" **وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** " أى لكم فيها استقرار ولكم فيها ما تحتاجون إليه للمتعة به مما لابد لكم منه وأكمل مأوى وهواء ونباتات وحيوانات وغير ذلك مما لا تطيب الحياة إلا به وفى ذلك عقوبة لآدم وحواء اللذين كانا فى جنة عدن لهما ما يشاءون فيها وعقوبة لإبليس الذى كان خادم السماء الأولى , وطامعا فى الخلافة عن ربه فى الأرض , وعقوبة للحية التى كانت جميلة الطلعة عالية المكانة ضخمة الجسم فصارت ملتصقة بالتراب يشدخ رأسها كل من رآها مما زاد فى

حزن آدم و وفى طرد ولعنة إبليس , وذل وخزى الحية " **وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ** " المتاع للأجل المسمى لهم جميعا .

قوله تعالى " **قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ** " (25) .

أى فى الأرض يحيون الحياة التى تذكركم ما كنتم فيه من النعيم والتهجة , وشتان بين الحياة فى الأرض وبين الحياة فى الملكون الأعلى " **وَفِيهَا تَمُوتُونَ** " أى وفيها تموتون بفقد الحياة الحيوانية " **وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ** " أى ومنها تبعثون يوم القيامة للحياة الثانية , وفى هذه الآية تقريع وتهديد لهم.

قوله تعالى " **يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**" (26) .

يناديا ربنا جل جلاله نداء القريب للقريب ليذكرنا إحسانه علينا وفضله العظيم " **قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً** " أى أعطيناكم عطاء مستعل عليكم متفضل , واللباس هو ما يلبسه الإنسان ليستر العورة ودفع الحر والبرد , والريش هو الحلى والزينة " **وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ** " وهو اللباس الذى يحصننا الله به من الوقوع فى المعاصى والخطايا , ويحفظنا به من صولة شهوتى البطن والفرج وخبث الطبع ووسوسة العدو وشرور النفس الأمارة بالسوء , وهذا اللباس هو الإيمان والعلم والهداية للقيام بمحاب الله تعالى ومراضيه .

" **ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** " اسم الإشارة إما أن يكون عائدا إلى لباس التقوى وتكون المعنى " **ذَلِكَ** " أى لباس التقوى خير لكم فى الدنيا والآخرة مع شدة الاحتياج إلى ما يوارى السؤات ويدفع شر الحر والبرد , وأما أن يعود إلى ما تقدم من اللباس " **وَلِبَاسُ التَّقْوَى** " لأنها من آيات الله تعالى التى توجب الشكر على العبد والسمع والطاعة لله ولرسولهε , " **ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَتقوُن** " , أى ما تقدم من الإحسان من آيات الله التى يتفضل الله بها على بنى آدم لعلهم يذكرون , أى ليتذكروا نعم الله العميمة عليهم فيشكرون الله جل جلاله ويذكروه سبحانه ويعبدوه بإخلاص .

قوله تعالى " **يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ** " (27) .

تأويل هذه الآية تقدم الكلام على قوله تعالى " **يَا بَنِي آدَمَ** " أى لا يبتليكم بالفتنة التى توقعكم فى معصية الله فينزع عنكم لباس التقوى كما فتن آباكم آدم وزوجته فأخرجهما من الجنة بأكلهما من الشجرة " **يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا** " أى ينزع عنهما لباس التقوى بوسسته وكذب قسمه " **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ** " .

هذه الآية خبر من الله تعالى بيانا لحال شياطين الإنس والجن أما شياطين الجن فأجسامهم نارية لطيفة لا ترى للطا فتها , قال إبليس أنا نرى ونخرج من تحت الثرى والكهل منا يعود بسرعة فتى , والجن يرى بعضهم بعضا لما أودعه الله فى أعينهم من قوة الإدراك بخلاف بنى آدم . وأما شياطين الإنس فأنا لا نرى حقيقتهم التى يريدون أن يعاملوننا بها , فقد يأتى الإنسان لابسا جلود الضأن ناسكا مصلحا كما نراه , وهو فى الحقيقة ثعلب ختال وقد يأتى مظهرا الولاية الكبرى والدعوة إلى الحق وهو كلهب النار يحرق الناشف والرطب بكيده وختله , فتراه وليا صالحا وهو فى الحقيقة خائن خبيث , فيرانا مخدوعين له مصدقين كلامه , ونحن نراه وليا صالحا .

" **إِنَّـهُ يَـرَاكُمْ هُـوَ وَقَبِيلُـهُ مِـنْ حَيْـثُ لاَ تَـرَوْنَـهُمْ** " و القبيل المماثل وهم العشيرة والأشباه والنظائر فدخل فى قبيلة شياطين الإنس ومردتهم , الذى سوغ هذا التأويل هو قوله تعالى من حيث لا ترونهم لتشمل الآية شياطين الإنس , فأنا قد نرى شياطين الإنس من حيث أنهم من بنى آدم أمثالنا , ولكنا نجهل , ما انطوت عليه نفوسهم وهم يرونا على حقيقتنا ظاهرا وباطنا , وفى هذه الآية تحذير من الله لعباده من وسوسة شياطين الجن والإنس , وأن كيد شياطين الإنس أنكى وأشد من وسوسة شياطين الجن .

قوله تعالى " **إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ** " هذا خبر من الله تعالى أنه سبحانه جعل الشياطين أنصارا وأعوانا وقادة للذين لا يصدقون.

قوله تعالى " **وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَـةً قَـالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَـا وَاللّهُ أَمَرَنَـا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَـأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** "(28).

قوله تعالى " **قُلْ أَمَرَ رَبِّـي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِنـدَ كُـلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَـهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** "(29)

كان الجاهلية إذا طافوا بالبيت طافوا عراة , الرجال فى النهار والنساء فى الليل , إلا الخمس منهم وهم قريش , وكان النساء يسألن قريشا أن يعطوهن إزارا , فمن أخذت إزارا من الخمس ائتزرت به وألا تطوف امرأة عريانة مرتجزة ([1]) :فلما أمروا بان يطوفوا مستورين اعتذروا بقولهم " **وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَـا وَاللّهُ أَمَرَنَـا بِهَا** " فقلدوا آباءهم باطلهم وجهلهم بالحق , فرد الله عليهم بقوله سبحانه " **إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُون** " .

هذه الآية الشريفة قصمت ظهورهم وجللتهم بالخزى وعار الكذب على الله تعالى وأثبت أن عملهم هذا سببه اتخاذ الشياطين أولياء من دون الله , وجائز أن تكون الفحشاء فعل كل قبيح فاحش , وكان العرب يسمون الزنا فحشاء , وجائز أن يكون المراد بها طوافهم عراة وفعل كل منكر مما كانوا يبيحونه وقوله , " **أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** " سببه أن أهل الجاهلية كانوا يفترون على الله الكذب وهم يعلمون أن نسبة الخبر الى الله لابد أن تكون قد وصلت إليهم من رسول الله مرسل من الله تعالى , وليس فى كتاب من الكتب السماوية أن الله أنزل على الناس أمرا بطواف الطائفين عريانين , ولا أمرا بإباحة الفواحش ما ظهر منها وما بطن , و إنما ذلك كله باطل لا يؤيده علم .

وهذه الآية الشريفة أمر من الله تعالى لرسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين أن الله ما أمر بالفحشاء ولا بالمنكر تنزه وتعالى عن أن يأمر بما يكره , ليس وقوع العمل منكم برهانا على أن الله أمر به لأنه سبحانه يضل من يشاء ولكنه لا يأمر بالفحشاء ولا المنكر , فكيف يأمر بما يكره وأ، قدره سبحانه وتعالى , فان تقديره للفحشاء والمنكر لا يقتضى أمره بهما ولان غيب عن الأرواح والعقول , ووقوع المقدور لا يكون حجة لمخالف الأمر , الذى أمر الله تعالى به هو ما أخبرنا به فى قوله هنا "⇦ **قُلْ أَمَرَ رَبِّـي بِالْقِسْطِ** " , "و⇦ **الْقِسْطِ** " هو اعدل والحق فنفى عن نفسه سبحانه الظلم , وبأن يأمر عباده بما لا يحبه منهم " **وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِنـدَ كُـلِّ مَسْجِدٍ** " تأول هذه الآية تعضهم بأن معناها وجهوا وجوهكم عند صلاتكم إلي الكعبة ولو كانت الصلاة فى الكنائس و البيت , وهذا التأويل يصح أن كان المأمور به أهل الكتابين , ولكن سياق الآية يدل على أن المخاطب به هم كفار قريش , فيكون التأويل " **وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ** " أى قومها بأن توجهوها إلى

([1]) مرتجزة أى تستر عورتها بيدها .

الله مخلصين له الدين فى العمل فلا توجهوها إلى غيره من آلهتكم الباطلة , والمراد من الوجوه تقويم كل الجوارح بما فيها القلب حتى يكون المصلى مصليا حقا لله تعالى .

" **وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَـهُ الـدِّينَ** " الدعاء معلوم ومن معناه الصلاة أى وصلوا له سبحانه وتعالى داعينه ما شئتم مخلصين فى صلاتكم له سبحانه وتعالى – " **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** " أى كما بدأكم فى سابق علمه منكم شقى وسعيد فتعودون إلى هذا التقدير , فمن قدر الله له الحسنى فاز بها , فى الدنيا يفوز بالإيمان والإحسان وفى الآخرة يفوز بالكرامة والرضوان , ومن سبقت له السوء يشقى فى الدنيا والآخرة ففى الدنيا بالرق والجزية أو بالكد والعناء فى الدنيا والذل يوم القيامة بالعذاب الأليم فى نار جهنم .

قوله تعالى " **فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ** " (30) .

"**فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ** " هذه الآية تفصيل لما أجمل فى قوله كنا تعودون لآن الله تعالى قال "**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** " فمن حقت عليهم الضلالة باتخاذ الشياطين أولياء من دون الله وبالتكذيب بآيات الله فهم الأشقياء الذين سبقت لهم السوءى واما الفريق الذى هداه الله فهم الذين صدقوا الله ورسوله ولم يعدلوا به سواه " **إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ** " أى أن الذين حقت عليهم الضلالة هم الذين اتخذوا الشياطين أنصارا وأعوانا يلتجئون إليهم ويستعينون بهم من دون الله تعالى .

"**وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ** " "**الواو** " للحال "**يَحْسَبُونَ** " أى يظنون أنهم على هداية بما احتجوا به من قولهم " **وجدنا عليها آباءنا** " وهذا الظن لا يغنى من الحق شيئا , وهذه الآية عينت أن الأعمال فى الدين يجب أن لا يقوم بها العامل إلا بعد اليقين الحق والعلم بصحة إسنادها الى كتاب الله تعالى أو سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أو عمل السلف الصالح وكل عمل لم يكن عن يقين حق فأنه باطل لأن الله شنع على أهل الكفر بالله حسبانهم انهم مهتدون , ومن قلد مبتدعا أو عاملا بهواه وحظه من غير أن تقوم الحجة وتتضح المحجة فهو آثم ملأ الأرض عملا وظانا أنه على حق .

قوله تعالى " **يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّـهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** " (31) .

هذا أمر من الله تعالى يأمر به أهل الكفر به الذين كانوا يطوفون عراة حول الكعبة من غير الخمس كما تقدم , فنهاهم الله عن الطواف عراة وامرهم بأخذ الزينة من اللباس , وهذا سبب نزول الآية وخصوص السبب لا يقتضى خصوص الحكم , وتأويلها إن الله يأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد فمنها ستر العورة عند الطواف وعند القيام للصلاة و ومنها التجمل بين يديه تعالى بزينته التى يحبها سبحانه من إخلاص العمل لله وخشوع القلب وحسن الاتباع لرسوله صلى الله عليه وسلم ورعاية الأدب معه سبحانه وتعالى حتى يصلح لمناجاته وللوقوف بين يديه سبحانه .

" **وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** " سبب نزول هذه الآية أن أهل الجاهلية كانوا يحرمون على أنفسهم أكل اللحم فى أيام الحج , ويحرمون أيضا أكل السائبة والوصيلة والحام فأمرهم سبحانه بأكل ما أباحه لهم من الأنعام وبشرب كل شراب طاهر , لان التنسك لا يحرم ما أحله تعالى ولا بحل ما حرمه سبحانه , ونهاهم الله عن الإسراف "**والإسراف**" هو صرف المال فى غير وجهة كصرفه فى الفخر والرياء والانتقام وفى معاصيه سبحانه , قوله تعالى " **إِنَّـهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** " أى الله تعالى لا يحب المسرفين لان الإسراف من خلق الشيطان ووسوسته , والمسرف خبيث الطبع لم يتمسك بآداب الشريعة لاعتماده على ما فى يديه مما هو عرض يزول و وجهل بما

يعتور الإنسان من التغيرات لانه مثنوى بين فقر وغنى , وصحة ومرض , وعز وذل , وعطلة وعمل فمن لم يأخذ من شبابه لشيبه , ومن صحته لعلته , بل يأخذ من دنياه لأخرته لهو الأحمق المغرور .

قوله تعالى " **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** " (32) .

يأمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ان يسأل اهل الكفر بالله تعالى من العادلين به سبحانه الذين يطوفون حول البيت عراة ويتخذون الشياطين أولياء من دون الله ويكذبون بآياته جل جلاله ويقول لهم عليه الصلاة والسلام " **مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ** " أى التى أخرجها لهم من الأرض ومن المعادن ومن النباتات ومن أصواف الأنعام وأوبارها وحرير الدود و مع أن الله تعالى خلقها لبنى الإنسان وأباحها لهم فحرموها على أنفسهم وخصوصا فى وقت التقرب إلى الله بالطواف حول الكعبة , فقل لهم من حرم الطيبات من الرزق .

" **وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** " هى اللحوم فأنهم كانوا يحرمون على أنفسهم الشاه فى أيام الحج وما خرج منها من لحم ولبن وزبد محتجين بأنهم وجدوا آباءهم على ذلك وقل لهم أيضا " **قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** " مشتركة بينهم وبين أهل الكفر بالله , وقد تمتع أهل الكفر بالله منها فى الدنيا بما لم يتمتع به أهل الإيمان , وتلك النعم التى فى الدنيا مشتركة بين المؤمنين والكافرين و تكون خالصة من عناء وتعب فى طلبها ونضجها بل ومن قشور ونوى ومن حرافه وعصوفه وملوحة , وكذلك يكون لأهل الإيمان بالله يوم القيامة من غير مشاركة لاحد فيه حيث يكون أهل الكفر بالله فى سعير وعذاب اليم وأهل الإيمان بالله متمتعين بأطيب الطيبات فى روضات الجنات فى فرح وحبور ومسرات دائمة فى دار الخلود .

وفى هذه الآية خير البشرى لأهل الإيمان وشر التخويف والتهديد لأهل الكفر بالله ليتذكر من سبقت لهم الحسنى فيؤمنون , وليتكبر من سبقت لهم السوآى فيكفرون .

" **كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** " كما فصلنا آيات أحكامنا وبينا ما حللناه وما حرمناه فكذلك نبين آيات وعدنا ووعيدنا , وهذا البيان خص لقوم يعقلون عنا ما بعثنا به إليهم رسولنا محمدا صلى الله عليه وسلم لانه لا علم إلا بعقل ومعلم صالح فمن لا عقل له لا يقبل العلم.

قوله تعالى " **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** "(33) .

هذه الآية الشريفة أمر من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يبين للعادلين به سبحانه الذين حرموا على أنفسهم ما أحله الله تعالى وأحلوا ما حرمه من الطواف بالبيت عراة فقال سبحانه " **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ** " أى قل يا محمد لهؤلاء القوم الذين بينت لك ما هم عليه من الجهل والفحش " **القبيح**" المتجاوز " **مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** " أما الظاهر منها فطوافهم عراة حول الكعبة والباطن الزنا , ولك أن تقول أن الفواحش كل قبيح والظاهر منها هو قبيح الجوارح والباطن منها قبيح القلوب , وجائز أن يكون الظاهر منها هو الزنا فى المواخير وفى بيوت البغايا والباطن ما كان فى الدور حيث الخفاء . " **وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ** " "**الإِثْمَ** " غير الفواحش وهو شرب الخمر " **وَالإِثْمَ** " فى اللغة هو الذنب العظيم , وكل ما يفسد العقول فهو أثم والبغى هو الاعتداء على الأبدان والأموال , وعلى ذلك فتكون " **الفحشاء**" هى الاعتداء على الأعراض "**و الإثم**" الاعتداء على العقول , وما بقى إلا الاعتداء على الأديان فحرمه الله تعالى .

" **وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً** " وهذه الآية الشريفة جامعة , لكل أمراض النفوس وضعف القلوب فأن الله حرم الشرك به بأن يجعل لله شريكا بدون حجة تقوم على صحة الدعوى " **والسلطان** " هو الحجة والبرهان , وهذه الآية حجة على تحريم التقليد فى العقائد لمن عندهم القابل لتحصيل العلم , فلا ينتفعون بما وهبه الله لهم من العقول التى تقبل العلم وتنتفع به ويقلدون غيرهم ممن لا حجة لهم . " **وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** " أى وأن تقولوا أن الله حرم هذا أو أحل هذا أو أمرنا بهذا , أو أن هذا أبن الله أو أن الملائكة بنات الله أو غير ذلك مما توارثه الأبناء عن آبائهم الضلال أولياء الشياطين , فأن هذا محرم شرعا وعقلا .

قد جمعت هذه الآية الشريفة كل محرم مع كثرة المحرمات وورود أكثرها فى آيات كثيرة لأن كلماتها كليات جامعة كما بينت لك , " **فالفحشاء** " معاصى الأعراض , " **والإثم** " كل الذنوب التى تفسد العقول من سماع فحش الكلام , فالسمر مع أهل الغرة بالله , فالانقياد لأهل الظلم والمعاصى والعمل بعملهم , فصحبة الأشرار باحتساء ما حرمه الله من ألا شربة , فتناول ما يفسد العقول من أفيون وبنج بأنواعه , وما يسمم الأجسام كالسليمانى وغيره , والبغى هو التعدى على الأموال والأجسام وغيرهما مما يتعلق بها , أما العدوان على الأديان فالشرك بالله والقول على الله بغير علم , فثبت الحصر هنا لأن قوله " **إنما** " أداة حصر فحصر سبحانه الكبائر والسيئات والمخالفات فى هذه الآية , وهذا ما حرمه الله على أهل الكفر بالله إذا أرادوا الإسلام , أما ما حرمه على أهل الإيمان وأهل الإحسان وأهل الإيقان فذلك معلوم مما أمرنا به وما نهانا عنه فيما أنزله سبحانه على نبيه صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى " **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ** " (34) .

هذه الآية الشريفة تخويف وتهديد لكفار قريش و ومعناها لكل أمة من الأمم العادلة بربها المكذبة بآياته سبحانه آجل يبتدىء بعده الانتقام منهم لكفرهم بالله تعالى , وهذا الآجل هو مدة دعوتهم إلى الله تعالى و إقامة الحجج والدلائل عليهم وبيان شرائع الدين لهم واستدراجهم حتى تقوم الحجة عليهم فإذا أنتهى الأجل حلت بهم النقمة , ولما كان المراد من الأجل انتهاء تلك المدة ثم يأتى بعدها الانتقام , عين الله تعالى قرب وقت الانتقام قوله تعالى: " **فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ** " والمعنى أن هذا الأجل مقدر بعلم الله وتدبيره , وهو القادر الحكيم لا يبدل القول لديه وما هو بظلام للعبيد , وليس المراد أنه سبحانه بعجز عن تأخيره أو تقديمه بل المراد التهديد والتخويف والتشنيع وهو القادر على أن يفعل ما يشاء .

قوله تعالى " **يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** " (35) .

" **أن** " هنا شرطية , مد غمة فى " **ما**" للتأكيد , وبذلك صح الإتيان بنون التوكيد بعدها و " **يَأْتِيَنَّكُمْ** " فعل الشرط " **والكاف** "ضمير المخاطبين , " **والميم** " للجمع , " **رُسُلٌ** " فاعل , والمعنى أن يأتكم محمد فأن المراد برسل هو محمد صلى الله عليه وسلم لأنه صلى الله عليه وسلم منهم لأنهم يعرفونه من بدايته بالصدق والأمانة , وبما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الفقر وحب الخلوة والبعد عما هم فيه من الأهواء والمنافسات والحروب , حتى إذا بعثه الله بالحق بشيرا ونذيرا تحققوا ان ما هو عليه بعد الرسلة فوق طاقة البشر , ولابد أن يكون من عند الله تعالى , فسهل عليهم تلقى أسراره والتفاهم معه , وهى الحكمة فى أنه سبحانه بعث فى الأمم رسلا منهم , فان العلم به من صباه إلى يوم بعثته صلى الله عليه وسلم , بالحق بشيرا ونذيرا يؤنسهم به حتى لا يكذبه إلا من سجل عليه القضاء بالكفر ولا يسقط من يده إلا من سجل عليه القضاء الخلود فى نار جهنم , ثم بين الله

تعالى ما أعده لأهل الإيمان به صلى الله عليه وسلم ووعدهم به , وما توعد به أهل الكفر سبحانه فقال جلت قدرته " " أى يقرأون عليكم القرآن ويبينون لكم دلائل توحيدى وآيات احكامى , وما يجب عليكم من الأدب لى ويعلمونكم القيام بعباداتى .

" **فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** " **" الفاء"** هنا رابطة لجواب الشرط " **ومن** " دخلت عليه جواب الشرط لأنها جملة أسمية لابد وأن تربط بالفاء , **"و اتَّقَى** " اى أتقى تكذيب النبى صلى الله عليه وسلم و وقبل ما جاء به من عند الله تعالى " **وَأَصْلَحَ** " اى سارع إلى القيام بما أمره الله به من العبادات والفضائل الإسلامية , وجائز أن يكون اصلح نفسه وغيره " **فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** " نفى الله تعالى عنهم الخوف لأن الخوف يكون من وقوع أمر فى المستقبل , والحزن يكون على ما فات من أنفاس صرفت فى غير طاعة , والمسلم عند الموت يحل به الخوف والحزن , فإذا دنا منه ملك الموت وكان مأمولا بالبشائر منه قال له **"ما يخيفك يا عبد الله"** يقول**"أخاف من لقاء الله تعالى وأنا مذنب وظالم لنفسى"** فيقول له ملك الموت " **أن الله تعالى غفر لك و أعد لك من النعيم المقيم ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر** " فيذهب عنه الخوف ويزول الحزن , فيقول ملك الموت " **وما يحزنك يا عبد الله** " فيقول " **ورائى أولادى وأخوانى لم أترك لهم ما يغنيهم مع احتياجهم** ", فيقول له ملك الموت" **ابشر فان الله تعالى وكيلك عنهم فيزول حزنه** " ويقوى فرحه ويستقبل الموت مطمئن القلب باسم الثغر فرحا بلقاء ربه , وان كان بعض العلماء يقول انما ذلك بعد الفزع الأكبر .

والحقيقة أن تلك البشائر يمن الله بها على المسلم عند موته وانه لا خوف ولا حزن لمن ذكرهم الله تعالى يوم القيامة بقوله " **فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** " .

ودليلنا على ذلك قوله تعالى " **إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى** " .

قوله تعالى " **وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** "(36) .

تأويل هذه الآية الشريفة أن الله تعالى بعد أن بين لنا ما وعد به أهل أليمان من البشائر بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون , بين ما توعد به أعداءه فقال جلت قدرته " **وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا** " اى كذبوا ما جاء به رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى وأنكروا عليه "ε " استنكار واستكبار فلم يقبلوا الحق , ونأوا بجانبهم عنه إلى جانب الباطل " **أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ** " أى هؤلاء كذبوا بآيات الله واستكبروا وأحلوا ما حرمه الله تعالى من الفواحش وقالوا " **وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا** " وفى قوله " **أَصْحَابُ النَّارِ** " إشارة إلي خلودهم فيها لن أصحاب البيت لا يتحول عنه فهم يصاحبونها أبديا " **هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** " حجة على خلودهم فى النار , وهذه الآية أيضا حجة على أن الفساق من أهل الإسلام وأن ورودها لا يخلدون فيها .

قوله تعالى " **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ** "(37) .

" **مِّنَ** " هنا استفهامية " **وأَظْلَمُ** " أى شديد الظلم " **مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً** " والافتراء على الله مؤول بمعنيين :

الأول : - افترى على الله فقال عليه سبحانه قولا لم يقله .

والثانية أنه كذب ما جاء من عند الله على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم , وقد بين سبحانه المعنى الثانى بقوله " **أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ** " أى كذب بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما أرسله الله ليبلغه للناس , وجواب الاستفهام لا أحد أشد ظلما ممن ارتكب هذين الظلمين أو أحدهما :

" **أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ** " اسم الإشارة عائد إلى من افترى على الله كذبا أو كذب بآياته , وينالهم أى يستوفون و " **نَصِيبُ** " هو القسط والقسم الذى قدره الله لهم أزلا و " **مِّنَ الْكِتَابِ** " أى مما كتبه الله لهم فى اللوح محفوظ من الحياة والرزق والعافية وغير ذلك إمهالا لهم واستدراجا , وأن فسر بعضهم " **نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ** " أى من العذاب , ولكن هذا التأويل ينفيه قوله سبحانه " **حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا** " أى أن الله تعالى أمهلهم فى هذه الدار الدنيا حتى قامت الحجة عليهم بالإمهال وتبليغ الرسل لهم وإظهار المعجزات الدالة على صدق خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم إلى أن جاءتهم الملائكة يتوفونهم وهم عزرائيل وجنوده , لديها كشف الحجاب وظهر الغيب المصون الذى كانت تخبر به الرسل صلوات الله عليهم وسقط فى أيديهم وحققوا انهم هلكوا لا محالة فقال لهم الملائكة الذين قبضوا أرواحهم أين أولياؤكم من الشياطين وآلهتكم من الأصنام والأوثان , أين من كنتم تعبدونهم من دون الله تعالى وتتخذونهم شركاء معتقدين أنهم ينفعونكم عند الفزع الأكبر ويضرونكم أن آمنتم بالله ورسوله قالوا " **والواو**" هنا كناية عمن افتروا على الله كذبا وكذبوا بآيات الله " **ضَلُّواْ عَنَّا**" أى هلكوا واهلكوا ومالوا عنا لأنهم ضلال كذبون .

" **وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ** " أى وأقروا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين فيما افتروه على الله تعالى وعلى رسله صلوات الله وسلامه عليهم , ولن نفعهم تلك الشهادة لأنهم قالوها مقهورين بما حل بهم من العذاب .

قوله تعالى " **قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ** "(38)

" **قَالَ** " استئناف و " **ادْخُلُواْ** " أمر من الله تعالى لكفار قريش الذين يموتون على الكفر و " **فِي** " هنا بمعنى " **مع**" على قول المفسرين . أى ادخلوا مع أمم وهى هنا بمعناها الحقيقي , والمعنى أدخلوا فيما آل إليه أمر أمم من قبلكم كما دخلتم فيما دخلوا فيه فى الدنيا من الافتراء على الله والتكذيب بآياته فانهم افتروا على الله كذبا بقولهم والله أمرنا بها .

" **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم** " كقوم عاد وثمود وقوم لوط وقوم موسى وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام " **مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ** " أى هؤلاء الذين خلوا من قبلهم كانوا من الجن والإنس و " **فِي النَّارِ** " متعلق بأدخلوا أى أدخلوا فى الأمم الذين دخلوا فى النار كما دخلتم بتقليدكم إياهم فى الدنيا .

" **كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا** " لأن الأمم السابقين كذبوا رسلهم عليهم السلام وابتدعوا الأباطيل والضلالات أو غيروا أديان الرسل بعد وفاتهم بغير حجة لديهم واقتدى بهم خلفهم , فإذا رأوهم فى النار لعنوهم وخاصموهم وقالوا انتم قدمتم لنا هذا الباطل ونحن اقتدينا بكم ويلعنوهم , فيكون أهل جهنم أعذنا الله منها مع ما هم فيه من آلام العذاب و شديد البلاء فى خصومات ولعن وفضيحة بينهم وهو العذاب المضاعف , ولو أن الإنسان صدق الله ورسوله وسارع إلى محابه و مراضيه سبحانه لفاز بالنعيم المقيم فى الدنيا والآخرة حتى لا يسمع فى الجنة " إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً

" ([1]) , فيكون مع ما هو فيه من الحبور و السرور والنعيم الأبدى المتجدد , ويسمع بأذنيه قول الملائكة سلام من الله تعالى , وشتان بين من يكون فى عذاب اليم ولعن وخصومات وفضيحة وبين من فازوا بالنعيم المقيم فى جوار الأطهار مع الذين أنعم الله عليهم جزاء على زمن قصير فى تلك الدار صابرين على عبادة الله راضيين بقضاء الله شاكرين الله تعالى لم يكلفهم الله فوق طاقتهم قوله تعالى " **حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً** " أى فأحاطت بهم جميعا " **قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ** " هذه الآية الشريفة مرتبطة بالتى قبلها والمعنى أن أهل الكفر بالله لما أحاطت بهم النار وأدركوا فيها جميعا قال المتأخرون من كل فرقة للمتقدمين عليهم حقدا عليهم كما أخبرنا الله تعالى عنهم بقوله " **رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ** " الإشارة إلى من سبقوهم فى النار لأنهم أدركوا فيها جميعا و فلما رأوهم قالوا ما أخبرنا الله به و " **أَضَلُّونَا** " أى منعونا عن الهدى بعد إذ جاءنا على السنة رسلك عليهم الصلاة والسلام فانهم سنوا لنا الكفر ابتدعوه لنا فاقتدينا بهم وكذبنا بآياتك فانتقم لنا منهم يا ربنا .

" **فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً** "اى مضاعفا من النار , وأن كان هذا الدعاء وأن أستجيب لا ينفعهم بشىء , إلا أن الحال يدل على هول هذا الموقف المستوجب لتمنى وقوع الانتقام الشديد الذى يظنون أنه يخفف عنهم آلامهم الشديد ومن أين لهم ولات حين مناص " **قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ** " " **قَالَ** " للاستئناف " **لِكُلٍّ ضِعْفٌ** " معنى هذه الآية الشريفة إن الله حكم عدل وهب لكل واحد عقلا إذا فكر به ينكشف له الغيب و وأن المتقدمين وان كانوا سنوا الكفر وابتدعوه لكنهم لم يمكنهم الله تعالى أن يقهروا غيرهم على الكفر , فان أهل العقول السليمة من الهوى والحظ حتى ولو قهروا على الكفر تأبى قلوبهم أن تنعقد عليه , وأن نطقت ألسنتهم للسلام من القتل أو ما أشبهه عند مقتضى الرخصة , أما من هش قلبه وبش للكفر فهو الذى أقام الحجة على خبث طبعه ورداءة جوهر نفسه التى هى الأمارة بالسوء . أما من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان فنطق به تقاة فهو المسلم حقا , وأمال أهل المقامات العالية كاهل الإيمان الكامل والإحسان والإيقان من الرسل والأنبياء وإبدالهم ومن الصديقين وإبدالهم فهؤلاء يتلذذون بالقتل ليقينهم بما ينالهم بعده مباشرة من الروح والريحان قال تعالى " **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** " ([2]) . والرخص عند أهلها عزائم والتقليد فى هذا المقام حرام , فيجب على أهل الرخص أن يقفوا عندها , وعلى أهل العزائم أن يحافظوا على مقاماتهم .

" **وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ** " أى تجهلون أن الحجة البالغة لله عليكم وأنه سبحانه وتعالى لم يأمر بأمر إلا بعد قيام المعجزة الدالة على تصديق المبلغ , وبعد أن يأتيهم بالآيات البينات التى لا تجعل لأهل الكفر الضالين الأولين آثام من اقتدى بهم إلى يوم القيامة كما أن للائمة الهداة الأولين أجر من عمل بعملهم إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من عذاب المتبعين شيئا ولا من نعيم المتقين شيئا .

قوله تعالى " **وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ**" (39) .

أى قال المتقدمون من أهل الكفر بالله للمتأخرين منهم ردا على توبيخهم إياهم وسؤالهم ربهم أن يضاعف عليهم العذاب كما أخبرنا الله تعالى بما يكون منهم يوم القيامة بقوله تعالى " **وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ** " فما كان لكم علينا من فضل باتباعكم لنا فيما كنا عليه من الكفر يجعل دعاءكم

([1]) سورة الواقعة آية : 26 .
([2]) سورة آل عمران آية : 169 .

مقبولا عند الله تعالى , لانا لم نقهركم على الكفر ولكنهم لخبث طبعكم سارعتم إلى الكفر اتباعا للهوى والحظ لا اقتداء بنا , وان لم يكن ذلك كذلك فما الذى دعا أهل الإيمان إلى الإيمان فخالفوا ما كنا عليه واتبعوا ما جاءهم من عند الله على لسان نبيه محمد ε , مع ما ناوأتموهم به من عذاب وتضييق وشدة باس , ومع ما عاملتموهم به لم يزدادوا إلا تصديقا لنبيهم وقياما بالواجب عليهم , فلو كنتم ممن يقبل عن الله ما جاءهم به رسولهم ε لما كفرتم وكذبتم وجاريتمونا .

" **فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ** " بقلوبكم من الكفر بالله وبجوارحكم من الفحشاء والبغى بغير الحق وقولكم على الله ما لا تعلمون .

قوله تعالى " **إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ** "(40)

هذه الآية الشريفة خبر من الله جلت ذاته عن الذين كذبوا بما اقامه الله تعالى فى هذا الكون المحسوس الملموس بالعيان بعد البيان , من حجج التوحيد التى دلت عليها آيات هذا الكون المحدث التغيير الذى خلق الله أنواع الحقائق المختلفة فيه ليكون الإنسان محتاجا لقوامه إلى أشياء كثيرة ضرورية وكمالية لولها لما وجد الإنسان , دلت تلك الحقائق والدلائل الواضحة على أن الإنسان وما حوله من الكون حادث متغير حلقه رب قادر حكيم واحد أحد , وكذبوا بآيات الله الدالة على بيان توحيده للعقول السليمة من الهوى بما أظهره على يد خاتم أنبيائه من المعجزات الباهرات الثابتة بالتوتر , ومن أجلها هذا القرآن المجيد , وانشقاق القمر , والعين المفقودة , ونبع الماء من بين أصابعه ε , وإبراء المرضى , وجبر الكسر من العظام وغير ذلك مما افرد له العلماء المجلدات الضخام " **وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا** " أنكروها وأعرضوا عنها استكبارا وعلوا فى الأرض بغير الحق وجهلا بأنفسهم .

" **لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء** " أى لا تفتح لأرواحهم بعد الموت أبواب السماء ولا لأقوالهم وكلامهم , لان أبواب السماء لا تفتح إلا لأرواح أهل الإيمان بالله ولأقوالهم وكلمهم " **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** " ([1]) وأهل الكفر بالله نفوسهم خبيثة وأعمالهم ظلمة وكلامهم كفر , وقوله " **لَهُمْ** " أى لمن ذكرهم الله فى قوله " **إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا** " الآية , " **فالهاء**" هنا كناية عنهم .

" **وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** " "**الواو**" للعطف والجملة معطوفة على التى قبلها , والمعنى أن هؤلاء المكذبين بآيات الله المتكبرين عن عبادته لا تفتح لهم أبواب السماء ولا تفتح لهم أبواب الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط , أى حرم الله عليهم الجنة لأنها دار المتقين , وللظالمين أنفسهم بالكفر بالله دار أخرى ثم بين الله استحالة دخولهم الجنة بترتيب الدخول على مستحيل وهو قوله " **يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** " وفى لفظ " **الْجَمَلُ** " ثلاث روايات تختلف معنى ومبنى , فقرىء الجمل بفتح الجيم "و **الْجَمَلُ** " وهو البعير زوج الناقة المعد لحمل الأثقال , وقرىء " **الْجَمَلُ** " بضم الجيم وفتح الميم مخففه , وهو الحبل المعد لطلوع النخل , وقرىء " **الْجَمَلُ** " بضم الجيم وفتح الميم مشددة وهو حبل المركب الكبيرة المفتول من عدة حبال , وهو أقرب إلى الفهم , لانه يناسب سم الخياط , والمعنى أن دخول البعير فى ثقب الإبرة مستحيل , كما أن دخول احبال السفن فى ثقبها مستحيل وكذلك دخول الحبل الذى يعد لطلوع النخل , فثبت أن دخول المكذبين بآيات الله المستكبرين عن عبادته الجنة مستحيل عقلا وشرعا .

([1]) سورة فاطر آية : 10 .

وفى تلك الآية من التهديد والتقريع لأهل الكفر بالله ما تقوم الحجة به عليهم يوم القيامة بتبليغ الله إياهم هذه الحقائق على السنة رسوله , وما أيسر ما كلفهم الله به على نفوس المؤمنين , لقوله تعالى : " **وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ** "([1]) .

" **وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ** " أى وكما بينا انتقامنا من المكذبين بآيات الله المستكبرين عن عبادته , نحكم على كل مجرم بهذا الانتقام من جزاء منا عدلا بعد أن أقمنا الحجة بواضح الأدلة وعلى إرسال رسلنا , وبعد تكليفهم بما هو سهل يسر عليهم ليفوزوا بما وعدنا به أهل الإيمان يوم القيامة , وما أعظم ما أعطاهم الله من فضله وما ايسر ما كلفهم به ليفوزوا بالحسنين " **والمجرم**" هو عظيم الإجرام , ولا جرم أجل وأعظم من الشرك بالله وتكذيب آياته .

قوله تعالى " **لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** " (41) .

" **لَهُم** " اى لهؤلاء المكذبين بآيات الله المستكبرين عن عبادته " **مِّن جَهَنَّمَ** " التى توعدهم الله بها جزاء على كفرهم بالله وتكذيبهم بآياته" **مِهَادٌ** " أى فرش يضجعون عليه فيها من النار " **وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ** " " **وغَوَاشٍ** " جمع غاشية وهو الغطاء الذى يغطى به الإنسان , وقد تكون الغواشى لكل كافر منهم ويكون فوقهم الجمر واللهب والوخز بسنان من نار , وقد يكون لكل واحد غاشية اى لحاف من نار فيكون فى نار من فوقه ومن تحته , مع الخلود فيها أعاذنا الله منها ووفقنا لمحابه ومراضيه , وهذا مع ما تقدم من الخصومات مع أهلها ولعن بعضهم بعضا .

" **وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** " أى وكما انتقمنا ممن كذب بآيات الله وأستكبر عن عبادته ننتقم من المجرمين الظالمين جزاء عدلا منا , والمجرم الظالم هو المرتكب شر الكبائر كالكفر بالله والتكذيب بآيات الله سبحانه والتكبر عن عبادته .

قوله تعالى " **وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** " (42) .

بعد أن بين سبحانه ما أعده لأهل الكفر به من العذاب الأليم الذى يكونون فيه على فراش من نار وفوقهم غطاء من نار أعاذنا الله منها ومما يقرب منها من عقيدة وقول وفعل , بين سبحانه وتعالى ما وعد به أهل طاعته بقوله سبحانه " **وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** " معنى هذه الآية والذين صدقوا الله ورسوله ε , وسارعوا إلى القيام بما كلفهم به من العبادات المحبوبة للأرواح , والأعمال السهلة على الجوارح , ثم أتى سبحانه وتعالى بآية معترضة بين المبتدأ والخبر وهى قوله " **لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا** " وحكمة إنزالها بيان أن الله تعالى لم يكلف ثوابه وشديد عقوبة المخالف له والآية حجة على " **المجبرة**" الذين يقولون أن الله يكلف بما لا يطاق , والله تنزه وتعالى عن أن يكلف نفسا إلا وسعها , أى بما تسع قبوله المسارعة بسهولة إلى القيام به فما أيسر ما كلفنا به وما أعظم ما تفضل به علينا من الجزاء .

" **أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** " هذه الآية خبر للمبتدأ الأول , والإشارة عائدة للذين آمنوا وعملوا الصالحات وأصحابها أى الذين ملكها الله لهم للتنعيم فيها أبديا , فأن صاحب الشىء ينتفع به ويدوم استغراقه فيه خصوصا إذا كان هذا بخبر الله تعالى , والجنة تقدم الكلام عليها " **هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** " . هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى يبشر به أهل الإيمان , والجملة أسمية تؤكد توكيد الخبر وهى خير بشرى للمؤمن لأن المؤمن لا ينسى سكرات الموت أبدا فيخشى أن

([1]) سورة البقرة آية : 143 .

يكون فى الجنة موت , وهو مما يوجب الحزن , فاذهب الله عنهم الحزن بهذه الآية الشريفة , فأن قول أصحاب الجنة وأن أفادت طول الاستقرار فيها إلا أنها لا تفيد الخلود فيها وقوله تعالى " **هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** " طمأنت القلوب .

قوله تعالى " **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** "(43).

معنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى نزع ما فى صدور المؤمنين عند دخولهم الجنة من كل غل بأنواعه و أسبابه , كالحسد والمنافسة والغيرة , وحسب السبق فى الفضائل الإسلامية , وسبب نزول هذه الآية أهل بدر الذين اختصهم الله بما لا عين رأت ولا أذن سمعت , ولا خطر على قلب بشر , بسند الإمام ابن جرير الطبرى قال على عليه السلام فينا والله أهل بدر نزلت " **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** " .

وورد أن أصحاب الجنة قبل أن يدخلوها يجدون على بابها شجرة فى أصلها عينان بجريان فيشربون من إحداهما فيذهب الله عنهم وغر صدورهم , وما علق بنفوسهم , وينضر وجوهم فلا يشعث لهم شعر ولا تغير أجسامهم .

" **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ** " إشارة لطيفة إلى أن الله سبحانه وتعالى جمل لكل واحد من أهل الجنة ما أنزله فيه جمالا جعله مبتهجا محبورا بما آتاه الله عاجزا عن شكره سبحانه , وذلك بالنسبة لن الهداية فى الدنيا كانت من الله والتوفيق للعبادة كانت بمعونة الله , وقبول تلك الأعمال القليلة جدا بالنسبة للجزاء العظيم من الله كان بعنايته جل جلاله . فكان الحياء من الله تعالى بالنسبة لعجز كل واحد فى الجنة عن القيم بشكره , و لانكشاف الحقائق الدالة على أن أعماله فى الدنيا لا يفى بجرعة ماء شربها فيها فكيف تفضل عليه بهذا الفضل العظيم , فكان الواحد منهم إذا رأى ما أعده الله له فى الجنة يرى نفسه فوق الكل حبورا وبهجة و أنسا بما هو فيه .

وجائز أن يكون الله تعالى منحهم نورا من نوره ينظرون به إلى ما هم فيه من النعيم المقيم فيشغلهم عن النظر إلى ما فيه غيرهم من أهلها .

وجائز أن يكون الله تعالى منحهم عيونا تشتاق إليه جل جلاله وإلى ما لديه من الجمال العلى , فكان شغلهم بالشوق إلى هذا المقام يجعلهم مستشرقين فى دوام الرغبة إليه , فإنه ورد أن الله تعالى تجلى لأهل الجنة فيسألهم فيما ينظرون فيظهرون العجز عن حصر نعماه سبحانه وما هم فيه من الابتهاج ودوام المسرات بنعيم الجنة فيقول الله تعالى هل أزيدكم , فيقولون وهل فوق هذا النعيم آخر يا ربنا لك الحمد والشكر , فيقول سبحانه وتعالى أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبدا , وهذا الرضوان فوق أعلى نعيم الجنة , وبهذا التقرير ثبت أن أهل الجنة طهرهم الله تعالى من وغر الصدور وغلولة ما كان بينهم من الإحن فى الدار الدنيا , لأن نعيم الدنيا محصور محدود , لو فاز به أحدهم حرم منه الآخرون , واما نعيم الجنة فهو نعيم لا تتصوره العقول وكيف تتصور العقول ما لواحد من المؤمنين من الفضل بدليل قوله تعالى : " **جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** " أى لكل تقى ومؤمن يتصرف التصرف المطلق فى جنات عرضها السموات والأرض , جمل الله له فيها من البساتين والحدائق والغياض والرياض , والحور المقصورات فى الخيام , والبيوت التى حيطانها من سبائك الذهب المجملة بالياقوت واللؤلؤ والمرجان والأشجار التى تجرى من تحتها الأنهار لا يشغله شىء آخر سوى التنعم بما هو فيه . فإن كل نفس فى الجنة يفوز فيه المؤمن

بمشتهيات وملاذ وحبور وسرور تعجز العقول عن تصوره و إنما يكون الحسد أو الضغائن والوغر فى الصدور من فقد مشهيات الإنسان أو من فقد ضرورياته .

فان كل إنسان نال كمالياته يحسد ولا يحسد , فكيف بمن فاز بالجنة , وصدق الله العظيم " **نَزَعْ** " أى أخرج ما فى صدورهم من غل حتى صاروا جميعا كأنهم جسد واحد , كل واحد منهم كجزء رئيسى لهذا الجسد .

" **تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ** " هذه الآية خبر من الله تعالى عما يتفضل به علينا من الإحسان , ومعلوم أننا فى تلك الدار الدنيا فى حاجة إلى الماء لأنفسنا و أنعامنا و زروعنا , وهذا الماء فى الدار الدنيا هو السبب فى الشحناء والبغضاء لقلته فى بعض البلاد وتحكم أهل الظلم فيه , مع كثرته فى بلاد اخرى كما نرى فى مصرنا هذا , وكان ولا ريب أول خاطر على من سمعوا خبر من الله تعالى أن يرد على قلوبهم ما تسقى به أشجار الجنة من الماء , فبشرنا الله تعالى وطمأن قلوبنا بقوله **"تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ** " أى من تحت أشجارهم , وبذلك سكنت نفوسنا إلى منفسها و اطمأنت قلوبنا بذكره .

" **وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ**" معنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يخبرنا أن أهل الجنة عند دخولهم الجنة وشهودهم ما أعده الله لهم من النعيم المقيم والحبور مما وعدهم به فى الدنيا على لسان سيد رسله ε , وشهدوا ذلك عيانا بعد البيان وجمدوا الله على ما تفضل عليهم , كما أخبرنا الله تعالى بقوله " **الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا**" , والمعنى أن الحمد خاص بالله , ولأنه سبحانه له الأسماء الحسنى التى يتفضل بالنعم على سائر المخلوقات فلا يحمد أحد سواه , قوله تعالى " **الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا**" وهذه هى الهداية إلى المكان , وهى النوع الثالث من أنواع الهداية " **هداية البيان** " "**وهداية الإحسان** " وهداية الدخول فى المكان . فان الله تعالى هو الذى هداهم بهداية البيان قبل الإحسان ببعثة الرسل إليهم فله الحمد فى الأولى والآخرى , وفى قوله تعالى " **هَدَانَا لِهَـذَا**" حجة على أنه هو الذى خلقنا وخلق أفعالنا وأطوارنا وهدايتنا وإقبالنا لأنه الذى يقول "**الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا**" مخبرا عن قولنا يوم القيامة .

قوله تعالى " **وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ** "أى وما كنا لنهتدى لدخول الجنة يوم القيامة ولا لنهتدى للإيمان به سبحانه وللتصديق بآياته فى الدنيا , قوله تعالى " **لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ** " أى لولا هداية الله لنا فى الدنيا بالبيان على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام , والإحسان من فضله والفوز بالهداية والنعيم المقيم فى جوار الحق جل جلاله , وفى هذه الآية تبرئتهم من الحول والقوة إلا بالله تعالى .

قوله تعالى " **لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**" بعد أن دخلوا الجنة وتنعموا بجمالها الظاهر للحس وبنعيمها الظاهر للجسم وبأنوارها الجليلة للروح , قالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا لقد جاءت رسل ربنا بالحق , والآية معطوفة على التى قبلها من مقول القول " **واللام**" هنا للقسم وجاءت رسل ربنا أى أرسلها الله تعالى لهدايتنا فبينت لنا سبل الله الموصلة إليه سبحانه , وبشرتنا بأنه من أتبعهم مؤمنا ومصدقا بما جاءوا به يفوز بالحسنى يوم القيامة , والحمد لله آمنا بهم وبما جاءوا به عليهم السلام ففزنا بما بشرونا من قبل الله , فكان مجيئهم لنا من عند ربنا بالحق الذى من تمسك به فاز بما وعدنا به سبحانه .

قوله تعالى " **وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ** " المنادى هو الله تعالى , أ, هم الملائكة , " **وان** " تفسيرية بمعنى " **أى**" وهذا أولى , وان قال بعضهم المخففة من الثقيلة وأسمها " **ضمير الشأن**" , والمعنى هذه هى الجنة يا أهل الإيمان التى وعد الله بها من أمن به فى الدار الدنيا .

قولـه تعـالى " **أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** " والميراث لابد أن يكون منقولا لمستحقه من غيره , وقد ورد فى الحديث أن الله تعالى جعل لكل إنسان مكانا فى الجنة ومكانا فى النار , فذا كان يوم القيامة ورث الله أمكنة الكافرين فى الجنة لأهل الإيمان ,فيكون قوله تعالى " **أُورِثْتُمُوهَا** " أى ورثتم أمكنة الكافرين فى الجنة لأنهم سيقوا إلى النار . وقوله تعالى " **بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** " قال بعضهم أن دخول الجنة معلل بالعمل بدليل قوله " **بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** " .

وهنا أبين ما غاب عنهم من سر الآية , فالمعلوم أن للعبودية أعمالا لا يليق أن ينسب لله تنزه وتعالى – كالذل والخشوع والخضوع والسجود والركوع والتبتل والدعاء – فان هذه الأعمال خاصة بالعبد , وهى صفات تنزه الله تعالى عن أن ينسب له شىء منها , بدليل قوله " **أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ . أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ** " ([1]) وقوله : " **أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ . أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ** " ([2])أو ما شبه ذلك , فنسب لنا سبحانه الإمناء ونسب له الخلق , كما نسب لنا شرب الماء ونسب له سبحانه إنزاله , ونسب لنا حراثة الأرض ونسب له سبحانه الزرع , ونسب له إنشاء شجرها , فله أعمال تليق به سبحانه وهو الذى خلقها وقدرها , ولنا أعمال بصفتنا مخلوقون مقهورون لا تليق بحضرته العلية , ونسبته العمل إلينا لا لانا خلقناها بل لأنها من صفات العبودية , أما التوفيق والمعونة والهداية للأعمال و إمدادنا بما به نسارع إلى محابه فمنه سبحانه , أما الذل والخضوع والخشوع وما يلزمهم من همات وحركات وسكنات فهو منا ولنا بصفتنا عبيدا مربو بون وعبادا مقهورون , وهو الرب القدر الحكيم , ومن بعلل بهذه الآية وظن بها أن العبد يخلق أعماله , من غير أن يتذوق أ، القرآن الحكيم إنما أنزل لإثبات التوحيد و إثبات وجودنا به سبحانه وليكلفنا بالعبادة وهو الموفق المعين , كان ظنه فى غير محله .

قوله تعالى " **وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** " (44) .

هذا خبر من الله تعالى عما يكون بين أصحاب الجنة وأصحاب النار من إظهار المسرة والفرح من أصحاب الجنة بما فازوا به من النعيم المقيم , ومن الشماتة بأصحاب النار الذين كانوا طالما يؤذونهم ويعيرونهم فى الدنيا , وهذا الخبر يقتضى أن نتلقاه عن الله تعالى بالتسليم والإيمان , فأن الذى خلق السموات والأرض بكلمة قادر أن يكشف الحجاب عن أهل الجنة فيرونهم ويتكلمون معهم كلام القريب للقريب, ليزيدهم فرحا وحبورا , وقادر أن يكشف الحجاب عن أهل النار ليشهدوا أهل الجنة وما هم فيه من الفرح والبهجة فيضاعف لهم العذاب برؤيتهم , ويسمعون كلام أهل الجنة ويسمعونهم كلامهم كما يتكلم الواحد منا مع الجالس معه فى تلك الدار الدنيا , وهذا الخبر لا يشك مسلم فيه , فأن القادر الذى لا يعجزه شىء إذا أخبرنا خبرا يجب علينا أن نسلم به تسليما , ولا نتأوله بحسب عقولنا وحسنا لأن نداء أصحاب الجنة أصحاب النار خبر من الله القادر سبحانه ومعنى قوله تعالى " **أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً**" أى ما وعدنا به من النعيم المقيم الذى نحن فيه الآن , والذى بشرنا به سبحانه على لسان خاتم أنبيائه محمد ε من أننا إذا آمنا به واتبعناه وسارعنا إلى القيام بما كلفنا به نفوز بالنعيم المقيم فى روضات الجنان فى مسرات أبدية لا نهاية لها , و " **حَقّاً**" أى محققا .

([1]) سورة الواقعة آية : 58 – 59 .

([2]) سورة الواقعة آية : 63 – 64 .

" **فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً**" "**الفاء**" هنا فاء الفصيحة رابطة لجواب شرط مقدر , وتقديره إذا ثبت وجود ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم , و " **هَلْ** " للاستفهام أى فهل وجدتم ما وعدكم به سبحانه على ألسنة أنبيائه عليهم السلام من أليم عقوبته وشديد عذابه على كفركم بالله تعالى وعلى تكذيبكم بآياته " **حَقّاً**" أى محققا " **قَالُواْ نَعَمْ** " ونعم بفتح النون والعين , أو بكسر العين قرائتان أى وجدنا ما توعدنا به الله حقا محققا .

" **فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** " الآذان هو الأعلام والأنباء و إنما سمى آذانا لأن فيه رفع الصوت وتبليغ الخبر , وقوله "**بَيْنَهُمْ** " أى بين أصحاب الجنة وأصحاب النار , ولما كان الآذان فيه معنى القول كانت " **أَن** " تفسيرية بمعنى أى " **لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** " أى غضبه ومقته وسخطه واليم عذابه على الذين ظلموا أنفسهم بالكفر بالله وبتكذيبهم لآياته ورسله .

قوله تعالى " **الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ** " (45) .

هذه الآية الشريفة بيان للظالمين الذين حكم الله تعالى عليهم باللعنة , والاسم الموصول بدل من الظالمين " **الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ** " صلته "**والصد** " هو المنع أى أنهم كانوا يمنعون الناس عن الدخول فى الإسلام , وينسحب هذا الحكم على كل من يصد عن سبيل الله ممن يعطلون أحكام الله تعالى , ومن المبتدعة الذين يفتحون أبواب الفتن المضلة فيشككون الناس فى دين الله , ومن المتكلمين فى القرآن بأهوائهم " **وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً** " فالانحراف عن الدين وعن الطريق المستقيم يقال له عوج , والميل عطفا على الغير يقال له عاج إليه أى مال إليه , وهؤلاء انحرفوا عن الصراط المستقيم ومالوا إلى الطريق المعوج , والمعوج على الصراط المستقيم هم الكفار والمنافقون وأهل البدع والأهواء المضلة .

" **وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ** " الواو هنا للحال , " **وَهُم بِالآخِرَةِ** " مبتدأ وخبر متعلق بكافرون , وأتى بالجملة الاسمية لتوكيد الخبر , وفى الآية إشارة إلى أن الذين كفروا بالآخرة هم أشر الخلق عند الله , لأنهم أباحوا ما حرمه الله تعالى غير خائفين من عذاب الله , ودليل الكفر بالآخرة فقد المراقبة لله تعالى , فأن المؤمن إذا راقب يوم القيامة وصدق به حقا لم يرتكب كبيرة توعد الله فاعلها بالنار , فكيف يكون مؤمنا بالآخرة يعتقد أن الكبائر توبقه فى نار جهنم ويقع فيها و وقد توعد الله تعالى من نسوا يوم الحساب بنسيانه لهم يوم القيامة فيحرمون الرحمة و العفو والمغفرة , قال تعالى " فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا " ([1]) .

قوله تعالى "**وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ** " (46).

" **وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ** "وهذا الحجاب هو السور الذى أخبرنا الله به عنهم بقوله تعالى " **فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ** " ([2]) وهذا الحجاب حاجز بين الجنة والنار .

" **وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ** " إذا جعلنا الواو للاستئناف فيكون الكلام عند قوله " **وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ** " ويكون " **عَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ** " الأعراف يعنى محل أهل المعرفة بدليل قوله تعالى " **رِجَالٌ** " ذكرت فى القرآن فى موضع الثناء من الله عليهم , فقال تعالى " **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ**

([1]) سورة الأعراف آية : 51 .

([2]) سورة الحديد آية : 13 .

يَأْتُوكَ رِجَالاً "([1]) . وقال تعالى " **رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ** "([2]) . وقوله تعالى " مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ " ([3]) فثبت أن لفظة رجال فى القرآن عنوان الثناء والمدح من الله تعالى , وعلى هذا التقرير نتناول قوله تعالى " **وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ** " وهؤلاء الرجال هم معنا فى الدنيا وهم على الأعراف أيضا , وحسبهم شرفا قول الله تعالى " **يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ** " حيث لا يعرفهم غيرهم , ومن أطعمهم الله على سيمى الخلق فعلموا ما قدره الله عليهم من السعادة أو الشقاء , يكونوا أكمل عباد الله تعالى , ومنهم على هذا التأويل "**خضر موسى** "ومنهم "**عمر بن الخطاب** "رضى الله عنه قال ε "**أن كان منكم محدثون فعمر منهم** " .

وما قال بعض المفسرين أن " **الأعراف**" جمع عرف كعرف الديك والفرس , أو مكان مرتفع عن الأرض , وأن الذين عليه رفعتهم حسناتهم عن النار وأبعدتهم سيئاتهم عن الجنة , وأنهم يرون أهل الجنة وأهل النار يوم القيامة فيعرفونهم بسيماهم , هؤلاء لا تكون لهم مزية , لأن معرفة الكافر والمؤمن متيسرة جدا لا تحتاج لأن يخبرنا الله تعالى عن معرفتهم لهم بسيماهم , لأن الكفار يعرفون بسواد وجوههم وبزرقة أعينهم , كما أن المؤمنين يعرفون ببياض وجوههم وبما جملهم الله به من غرة الوضوء و " **رِجَالٌ** " هذه فى القرآن المجيد دلالة على خصوصية عالية من الله تعالى .

" **وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ** " أى ونادى أهل الأعراف أصحاب الجنة أن سلام عليكم " **أن**" هنا تفسيريه بمعنى " **أى**" – سلام يعمكم ويشملكم حتى تدوموا فى النعيم المقيم " **لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ** " أى لم يدخلوا الجنة لأنهم من المسئولين يوم القيامة . قال تعالى " لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ " ([4]) " **وَهُمْ يَطْمَعُونَ** " طمع يقين أنهم ينالون ما فوق الجنة كما قال الخليل " َالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ "([5]) والطمع من هؤلاء يقين .

قوله تعالى " **وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** "(47).

وإذا حولت وجوههم , والصارف لها قد يكون الله تعالى ليشهدهم ما أعده لأعدائه , وقد يكون الصارف لها غيره سبحانه و" **تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ** " أى تجاه أصحاب النار فيرون ما هم فيه من اليم العذاب , لديها يتذكرون ربهم القادر تذكرا حضوريا فيخاطبونه خطاب القريب للقريب متضرعين بقولهم " **رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** " الذين ظلموا أنفسهم فى الدنيا من العادلين بك المكذبين بآياتك سبحانك , وجائز أن يكون هذا فى الدنيا لأن الله منحهم المعرفة فى الدنيا فعرفوا كلا بسيماهم , فهم يعرفون أصحاب الجنة وأصحاب النار فى الدنيا قبل الآخرة .

قوله تعالى " **وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ** "(48).

هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى يبين لنا سبحانه به ما يكون بين أهل الجنة وأهل النار وأصحاب الأعراف , وتقدم أن أصحاب الأعراف يقولون لأهل الجنة سلام عليكم , ويكون هذا السلام لأشخاص معلومين لهم بأعيانهم فى الدنيا بما منحهم الله من نور المعرفة التى يعرفون كلا

([1]) سورة الحج آية : 27 .
([2]) سورة النور آية : 37 .
([3]) سورة الأحزاب آية : 23 .
([4]) سورة الأحزاب آية : 8 .
([5]) سورة الشعراء آية : 82 .

بسيماهم , ويكون كلامهم لأهل النار يوم القيامة بأن يقولوا " **يا أبا جهل بن هشام ويا عقبة بن معيط ويا أمية بن خلف ما أغنى عنكم من عذاب الله شيئا جمعكم الذى جمعتموه من مال وجنود**" .

" **وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ** " أى وما كنتم تستكبرون على قبول الإسلام من اعتمادكم على شركائكم من دون الله ونما لديكم من جاه وعصبة ومال .

قوله تعالى " **أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ** "(49) .

وهم صهيب الرومى و سلمان الفارسى وبلال بن حمامه وابن أم مكتوم وابن الأرث وأمثالهم من ضعفاء المسلمين . " **ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ** " هذا أمر من الله أو من الملائكة لهؤلاء الضعفاء ليضاعف العذاب على أهل النار برؤية هؤلاء الضعفاء قد نعمهم الله فى الجنة , وهذا القسم الذى أقسمه أهل النار كان فى الدنيا اذا راوا ضعفاء المؤمنين لما كانوا عليه من الفقر والمهانة , وهم الذين أمر الله خاتم النبيين "ε " أن يصبر نفسه معهم حينما طلب منه أكابر مجرمى قريش أن يجعل لهم مجلسا خاصا بعيدا عن الضعفاء المستقذرين فى أعينهم , وقد قال بعض المفسرين أن القسم كان لأهل الأعراف الذين لم تبلغهم حسناتهم دخول الجنة ولمتوقعهم سيئاتهم فى النار , مع أن أهل الأعراف هم أشراف الجنة وأهل عليين منها , ولكن الله تعالى أوقفهم على الأعراف لحكمة ثم يرفعهم إلى عليين بفضله و إحسانه .

" **لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ** " تقدم الكلام على هذه الآية الشريفة وبينا سبب خوفهم وحزنهم وكيف أمنهم الله من الخوف وبدل حزنهم فرحا .

قوله تعالى " **وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ** "(50) .

سبب هذا الخبر من الله تعالى أن أهل النار يقولون يا ربنا أن لنا ذوى قربى فى الجنة نريد أن نكلمهم , فيسر لنا الكلام معهم – فيقولون لأشخاص معلومين لهم فى الدنيا – " **أَنْ أَفِيضُواْ** " أن تفسيره بمعنى أفيضوا علينا من الماء لاحتراق قلوبنا من الظمأ , أو مما رزقكم الله من الطعام لاحتراق بطوننا من الجوع .

قوله تعالى " **إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ** " هذه الآية مؤكدة بحرف التوكيد وهى جملة اسمية تثبت استحالة نيل أهل النار من جهنم , وهذا جزاء من أحل ما حرمه الله , وحرم ما أحله كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام الخ .

قوله تعالى " **الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** "(51) .

تأويل هذه الآية الشريفة أن أهل النار الذين حرم الله عليهم طيبالت الجنة هم الذين اتخذوا دينهم – أى أو أبدهم التى اعتادوا عليها – وكانت لهم كالدين الذى يحافظ عليه أهله وتلك الأوابد ما كانوا عليه من اللعب واللهو فى أيامهم التى اتخذوها أعيادا فى لعبهم الميسر وضربهم بالقداح وغير ذلك " **وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** " فكانوا يأملون الخلود فيها والطمع فى أعراضها الفانية والتفانى فى الإيثار بالمال والجاه ونفوذ الكلمة , والدنيا كفانا الله شرها تضر وتغر وتمر , والحياة الدنيا هى الحياة الدنيئة أو الدانية .

" **فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا** " . هذه الآية الشريفة أخوف ما يخاف أهل الإيمان وهو نسيان الآخرة , فالنسيان يقع من العبد , ولكن الله تنزه وتعالى عن النسيان , و إنما هى

المقابل كما قال تعالى " وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا " ([1]) . وكذلك جزاء هؤلاء القوم الذين نسوا يوم الحساب أن يحرمهم الله تعالى من إحسانه يوم القيامة , وهذا الحرمان هو المقابل لنسيانهم " **وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** " " **الواو** " هنا للعطف , ومعنى الآية الشريفة أن الله تعالى يخبرنا بحرمانهم من الإحسان بنسيانهم يوم القيامة وكما كانوا بآيات الله يجحدون " **وآيات الله تعالى** " هى رسوله محمد ε , وكتابة المنزل عليه , وما أقامه سبحانه من الدلائل الدالة على توحيده سبحانه مما هو محسوس ملموس .

قوله تعالى " **وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** "(52) .

"**الكتاب** " هو القرآن المجيد "واللام" للقسم " **وقد** " لتحقيق , أى " **فَصَّلْنَاهُ** " فلا أجمال فيه فيما يتعلق بالعقيدة والأخلاق والمعاملات , ولا ببيان أيام الله وقصص الأنبياء والملوك , وهو خاتم الكتب والمهيمن عليها الذى أسجد العقول بما حواه من غرائب الحكم وعجائب الأحكام, ومن بيان المغيبات التى وقعت بعد نزوله , ومن كشف حقائق الوجود مما لم تدركه العقول وسلمت به بعد بيانه " **عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً** " أى فصلناه عالمين بما بيناه من حقيقة الدعوة ومناهجها التى سجد لها العقل وسلم لها تسليما , ولم ينكرها إلا من سجل عليه القضاء الكفر ممن خلق الله نفوسهم من أخبث جواهر العالم " **هُدًى وَرَحْمَةً** " حالان والمعنى ليهتدى به من قدر الله لهم الهدى , ويرحم به من سبق فى علم الله لهم الرحمة , وقد تقدم معنى الهدى والرحمة " **لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** " أى يصدقون بهذا الكتاب.

قوله تعالى " **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ** " (53) .

" **هَل** " هنا للاستفهام و" ْ **يَنظُرُونَ** " أى ينتظرون " **إِلاَّ تَأْوِيلَهُ** " أى ما يؤول إليه الأمر يوم القيامة مع إنكارهم عليه " **يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ** " أى يوم تقوم القيامة وتظهر عاقبة الأمر ويرون سعير النار وزبانية جهنم وهول الموقف عند ذلك يتحقق أنهم كانوا فى ضلال مبين .

" **يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** " أى يوم يظهر صدق الرسل عليهم السلام وتحط بهم الأهوال من كل جانب , ولا شفيع يشفع لهم ولا نصير , لديها يقولون ما أخبرنا الله به عن قولهم يوم القيامة " **قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** " أى أن مجىء الرسل لنا كان حقا , وأن كنا لم نؤمن بهم وكذبناهم وها هو الأمر كما أخبرونا به , وفى هذه الحالة من الخزى والندامة والحسرة والخذلان ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة , لأن من وقع فى العذاب دون شفيع ولا ناصر بعد تكذيبه وعناده للداعى إليه وعداوته ومحاربته فوق العذاب على الضمير أعذنا الله تعالى من سوء العقاب .

" **فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا** " بعد أن ذاقوا العذاب وعلموا أن لا مناص منه , وكانوا أهل أمانى فى الدنيا فغلبتهم الآمال الكاذبة وقالوا كما أخبرنا الله عنهم " **فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء**" استفهام المتلهف اليائس – أى هل يكون لنا شفعاء فيشفعوا لنا عند ربنا – "**والفاء**" هنا للسببية والفعل منصوب بحذف النون " **أَوْ نُرَدُّ** " معطوفة على فيشفعوا فتكون منصوبة وترفع لوقوع الفعل موضع الاسم , ومعنى نرد أى نرجع إلى الدنيا بعد أن عاينا ما عايناه من صدق رسل الله عليهم السلام فى وعيدهم باليم العقوبة للكفر بالله " **فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** " " **فَنَعْمَلَ** "

([1]) سورة الشورى آية : 40 .

بالنصب على أنها معطوفة على فنعمل بشرائع الإسلام عملا يرضى الله علينا غير الذى عملناه مما أغضب الله تعالى " **قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ** " خبر من الله تعالى عن أهل الكفر بالله يوم القيامة , و معناها أن الكافرين خسروا أنفسهم أى غبنوها حقها الذى يكون لها يوم القيامة لو أنهم اتبعوا شرائع الإسلام " **والخسران**" معلوم وكيف لا يخسر نفسه من كان يستحق أن يكون فى روضات والجنات العاليات فخلد فى الجحيم بسبب كفره بالله ورسله .

" **وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ** " أى وهلك عنهم ما كانوا يفترونه من دعوى الألوهة لغير الله من الأوثان والأصنام والكواكب والأفلاك , ومن اتخاذ ولد لله تنزه وتعالى و ومن كان هذا حاله يوم القيامة فبئس الحال حاله .

وهذا الخبر من الله فى تلك الآيات بيان للخلق لتقوم الحجة لأهل الإيمان , وعلى أهل الكفر بالله , وثبت الهداية والإضلال لله تعالى فهو الذى هدى من هداه بسابقة الحسنى وبالبيان الجلى الصريح , فى الدنيا , وهو الذى أضل من أضل بسابقة السوء وبالبيان الجلى الصريح الذى أقام الحجة عليهم حتى يكونوا مستحقين للخلود فى نار الجحيم , ولله الحجة البالغة .

قوله تعالى " **إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** "(54) .

بعد أن بين الله تعالى أمر المعاش والمعاد وما قدره فيه لأوليائه وأعدائه , بين فى هذه الآية الشريفة دلائل التوحيد الذى لأجله خلق السموات والأرض وما فيهن فقال سبحانه " **إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ** " الذى تفضل فأوجدكم من العدم , ورباكم بلطائف إحسانه , وخلق لكم ما أنتم فى أشد الحاجة إليه , " **الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ** " , وقد تقدم الكلام على لفظ "**الجلاله**" " **والخلق** " هو التقدير , والسموات مأخوذة من السمو والعلو , وقد تقدم الكلام على معنى السموات والأرض .

" **فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** " والأصل فى " **ست**" سدس أو سدسه بدليل تصغيرها "**بسديسه** " . و إنما قال الله تعالى فى ستة أيام ولم يقل فى كلمة أو فى لمح بالبصر ليبين لنا مزية التأنى , وليقيم الحجة على أنه أوجدها من العدم مرتبة . والأيام هذه من أيام الله لأنه قبل خلق السموات والأرض لم يكن هناك أيام إلا أيام الله تعالى , فخلق السموات والأرض كان فى ثلاثمائة سنة و وان اليوم من أيام الله بخمسين ألف سنة , وما كونه القادر الحكيم يستمر وجوده مترتبا مترقيا لتقوم الحجة على أنه ليس عبثا , وفى تلك الآية الشريفة أسرار نمسك القلم عنها ونبينها أن شاء الله تعالى عند قوله تعالى " **وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ** " ([1]) ومن جهل أيام الله التى منها اليوم الآخر , ونسى أى ترك العمل لها هلك مع الهالكين .

قوله تعالى " **ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** " معلوم أن الله تعالى اسمه الملك فعلا وحكما , فهو الملك ذاتا واسما وصفة وعظمة قبل الخلق , وفى وجود الخلق وبعد الخلق لا ينازعه فى ملكه جل جلاله إلا ضال مضل غرته زهرة الحياة الدنيا , ومن لا يملك أن يتصرف فى نفسه برد ما يضره أو جلب ما ينفعه , ورضى لنفسه أن يقال له ملك فهو جاهل بنفسه , والقرآن العظيم يخاطب العقول . ولما كانت العقول لا تحكم بالملك إلا لمن له عرش يستوى عليه ليقهر كل من تحت عرشه , ولما خلق الله السموات والأرض وهى مملوكة لله ومن فيها وما فيها ملكا مطلقا , من حيث الإعطاء والمنع ومن حيث أنواع المثوبة والعقوبة جميعها لا مبدل لحكمه , قال سبحانه " **اسْتَوَى عَلَى**

([1]) سورة إبراهيم آية : 5 .

الْعَرْشِ " أى أن العرش وما حوى من حملة العرش فنازلا عبيد مقهورون وعباد مربوبون والاستواء معلوم والكيف مجهول , والواجب علينا التسليم ومن آمن بقوله تعالى " **وَهُوَ مَعَكُم** " ([1]) , و " **يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم** " ([2]) و " **إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّك** " ([3]) , وما أشبهها , بل ومن ذاق حلاوة التنزيه وعلم أن الله تعالى أخبرنا سبحانه أنه " **اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** " واتقى الله تعالى بالأدب مع الله علمه الله تعالى ما لم يكن يعلم .

وهنا إشارة فى قوله " **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** " ([4]) ولم يقل " **القهار أو المنتقم**" ومعلوم أن العرش محيط بالسموات والأرض , والرحمن جل جلاله مستو عليه فيظهر لأهل التسليم أن العرش وما حوى فوقه الرحمن جل وعلا , وفى اسم الرحمن روح الرحمة يؤيد ذلك قوله ε بقول الله تعالى" **سبقت رحمتى غضبى** " فيكون العرش وما فيه خلقه الله تعالى برحمته , وأمده بالوجود والإمداد برحمته , وخلق السموات والأرض وما فيهن من بدائع إبداع صنعه ولطائف إحسانه وجميل فضله وكرمه برحمته .ولو قال سبحانه " **القهار على العرش استوى** " ما أبقى على ظهر السموات والأرض من دابة ولا حى ولا نبات بل ولا ما ينتفع به انس ولا جن , فسبحان من بإحسانه وفضله استوى على عرش باسمه الرحمن وسبحان من لعظمته وغناه المطلق وفضله العظيم استوى لعباده على العرش باسمه الرحمن .

وهذا ما تسعه العبارة فى هذا المقام وقد بينت لك أن الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة وان التسليم لخبر الله إيمان , وما للعقل وللبحث فيما لم يكلفه به الله , فان الله تعالى وصف نفسه بالاستواء على العرش وصفات الله وأسماؤه وذاته فوق أن يدرك العقل منها ساطعة نور فضلا عن أن يدرك الكنه والهوية اللهم أنا آمنا بما أنزلته على حبيبك محمدا صلى الله عليه وسلم وسلمنا له تسليما , واعلم أن الله تعالى خلق العقل وسخر له السموات والأرض وما فيها لينتفع بما أبدعه الله فيها من المنافع للإنسان ولم يأمره أن يشرف على قدس العزة والجبروت ولا على غيب الأقدار فضلا عن غيوب العظموت الأكبر .

قوله تعالى " **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً** " هذه الآية الشريفة من أجل دلائل التوحيد لن أعلى الأقدار , وقد ثبت أن الموجد الذى انفرد بإيجادنا من العدم , و إمدادنا بما يحفظنا هو الله سبحانه بدليل قوله تعالى " **إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** " فأقام سبحانه الحجج الناصعة على انفراده بالإيجاد والإمداد فى هذه الآية , فثبت أن الموجد للعالم هو الله والممد للبنى الإنسان هو الله , فان قوله " **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً** " يعنى أن الليل يغطى النهار ويستره ليمد الخلق بما به صلاحهم من حيث حفظ حياتهم فى الليل الذى يميل بالأجسام إلى النوم وبالنهار الذى يبسطها للعمل وما ينتج منها بالنسبة للزرع والحيوانات بل والجمادات , وتغيير الليل والنهار به حفظ تلك الأنواع جميعها , لأن النهار لو دام مستمرا لهلكت الأجسام كلها من حيوانات ونباتات ومعادن لما يعتورها من العناء لفقد نعم النوم , ولو دام الليل مستمرا لهلكت الأجسام أيضا لما يعتورها من الفتور والميل إلى السكون وفقد النشاط للأعمال الضرورية , فغشيان الليل النهار إمداد من الله و إحسان لحفظ حياة عمار الأرض , واقل ما فى ذلك

([1]) سورة الحديد آية : 4 .
([2]) سورة الفتح آية : 10 .
([3]) سورة الأعراف آية : 206 .
([4]) سورة طه آية : 5 .

تطهير الهواء بالشمس نهارا وتقوية الأعضاء الرئيسية للهضم وتنقية الدم وإزالة الأمراض بالحركة فى النهار وتنشيط الأشباح بالنوم لاستقبال عمل النهار المقبل , فسبحانه من اله خلق كل شىء ويسر لكل موجود ما به حفظ قوام حياته إلى الآجل المحدود .

وتأويل هذه الآية أن الله يقول إن ربكم الذى بخيره رباكم وبفضله والاكم , هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش وهو الذى يغشى الليل النهار حثيثا و وفى كل كلمة من تلك الكلمات كنوز طلسمها الكسل عن طلب العلم وإنما يفك هذا الطلسم بطلب العلم وتحصيله وشحذ العقل واستعداده للسياحة فى ملك الله وملكوته مبنا ومعنى , وقوله تعالى **"يَطْلُبُهُ حَثِيثاً "** أى يسرع ليدركه فيغشاه حتى يظهر الليل ويستر النهار فتستمر المثنوية فى الخلق .

قوله تعالى **" وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ "** معنى هذه الآية الشريفة أن الله سبحانه وتعالى يبين لخلقه أنه هو الذى خلق السموات والأرض كما تقدم بيانه , وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونها مسخرات بفضله جل جلاله وهذا التسخير منه سبحانه لحفظ حياتكم التى لا بقاء لها إلا بما لابد لها من الضروريات والكماليات , والشمس هذه التى نراها قدر الرغيف فقط هى قدر الأرض أضعافا كثيرة وهى فى السماء الرابعة تمد أفلاك السموات لأنها سراج , والسراج يسرج غيره وقد قدر الله تعالى أن تكون للشمس فوائد ومنافع تعم جميع حقائق الأرض , بل وما فى الأجواء والأرض حتى أطلق على كواكب السموات والأرض اسما مخصوصا بها فيقال المجموعة الشمسية لن كل الكواكب مرتبطة بالشمس , ولما لها من الفوائد الجليلة عند من أدرك مزاياها من غير أن تكون له بصيرة نافذة تقتبس أنوار الملكوت حتى يرى الشمس بالنسبة لعلمى عليين و أعلى عليين كأنها ذرة ملقاه فى واحة , ومن جهل نفسه جهل ربه , قال الله تعالى **" وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا "** ([1])فتسخير الشمس والقمر والكواكب للإنسان برهان على أن الإنسان فوق هذا العالم قدرا , وما عرف شيئا من جهل نفسه , لأن من جهل نفسه عظم الحقير واستهان بالعظيم , ومن جهله بنفسه نسى حقائق بجهالته بها يكون مشركا , منها نسيان يوم القيامة , ونسيان مراقبة ربه فى كل شئونه ، ونسيان محاسبته نفسه , ونسيان الموت مسلما , فقد يكون أقرب ما يكون من الله غافلا عن موطنه الذى هو فيه كما يقف المسلم فى الصلاة بجسمه , وقلبه واقف بين يدى خصومه وآماله , كل ذلك من الجهل بالنفس , قال ε **" من عرف نفسه عرف ربه "** ولما كان هذا التفسير لا يسع بينا عن الشمس والقمر والنجوم أحببنا أن لا نطيل الكلام فى هذا الموضوع , وسنجعل له رسالة خاصة تبين فوائد الشمس والقمر والليل والنهار أن شاء الله تعالى .

قوله تعالى **" أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ "**بعد أن أقام الحجج على دلائل التوحيد وعلى انفراده سبحانه بالإيجاد والإمداد الأمران اللذان هما الدليل الجلى البين لبيان حقائق التوحيد لمن احب أن يطمئن قلبه . وقد كتبت بتوسع فى هذا الموضوع عند الكلام على قوله تعالى " يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون " الآية ..

وفى هذه الآية الشريفة بين جل جلاله أنه مختص بالانفراد دون غيره بالخلق والأمر **" والخلق"** لغة هو تقدير وقد أثبت ذلك فى الآيات السابقة , وفى هذه الآية أثبت اختصاصه جل جلاله بالخلق , بشىء آخر هو **" الأمر"** أى أنه هو الأمر جل جلاله دون غيره , ومن قال إن الأمر لأحد غير الله أشرك به , قال تعالى **" إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ " " والأمر"** هنا هو الإظهار أى أنه يأمر بما يشاء , و إنما أمره جل جلاله كلمته , والسموات والأرض ومن فيهن وما فيهن كلمة من كلماته سبحانه قال

([1]) سورة النحل آية : 18 .

تنزهت ذاته " **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**" ([1]) وأما الأمر الذى فوق المادة ولوازمها فذلك نوع آخر من مخلوقاته جل جلاله قال تعالى " **قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** " أى وكما أن له الخلق إظهار للماديات فله الأمر إيجادا للمعناويات لقوله " **الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** " . و "**ألا**" هنا فى هذه الآية يقظة لقلوب السامعين وتنبيها لقواهم العقلية حتى يتدبروا كلام الله تعالى ويتذوقوا أسرار خطابه تنزهت ذاته .

قوله تعالى " **تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** " أى تنزه وتقدس وهو جل جلاله المنعم المتفضل العلى عما يصفه أهل العزة به " **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً**" ([2]) وقال علي عليه السلام "**من وصفه فقد حده ومن حده فقد عده , ومن عده فقد كفر به** " .

وهو الواحد الأحد الفرد الصمد خلق السموات والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والكواكب بل خلق كل شيء بكلمته لا بهمامة نفس ولا بآلات وأدوات تنزه وتعالى عن صفات الخلق .

قوله تعالى " **ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** "(55) .

بعد أن بين لنا أحكامه ودلائل توحيده سبحانه وما أمدنا به من واسع إحسانه وجميع آلاته , بين لنا الأدب الذى ينبغى أن نتجمل به عند اضطرارنا والتجائنا حتى تفتح لنا كنوز عطاياه ونمنح سريع إجابته وقريب إغاثته فقال تعالى " **ادْعُواْ رَبَّكُمْ** " والدعاء كما ورد فى الحديث هو مخ العبادة لأنه البرزخ بين العبد وربه , وهو لباس التقوى الذى هو خير , وهذا مقام على لأهله الذين عرفوا أنفسهم فتحققوا بكمال الاضطرار إليه جل جلاله , فسألوه مع الغنى به عن شرار خلقه , ومع وفرة الخير من العافية والأمن والقوت , وكان دعاؤهم ربهم من جذبة صولة الشوق إليه جل جلاله , وهم عباد الله المخلصون " **بفتح اللام**" الذين أخلصهم لذاته فواجههم بوجهه و أشهدهم جماله ففروا به إليه مما سواه , كما قال تعالى " **ففروا إلى الله** " وهناك من يدعون ربهم عند الاضطرار إليه إذا نزلت بهم حاجة من فاقة أو ظلم أو سقم أو خوف فقد محبوب أو خوف توقع مكروه , وهؤلاء أقل بكثير من أهل المقام الأول " **والتضرع**" هو التبتل والتملق والتخشع "**و الإخبات**" وهو الأدب الكامل فى مقام الدعاء وهو عند القوم الاسم الأعظم بدليل قوله تعالى " **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاه** " ([3]) .

وما اضطر عند إلى ربه بقلبه وقالبه إلا لباه وأغاثه , ومعنى " **الاضطرار بالقلب**" تجرد القلب من الاعتماد على الغير أو الثقة بالغير , فان الله إذا نظر إلى قلب المؤمن فرأى فيه غيره مقته ولا يرفع الدعاء إلى الله إلا من قلب اسلم لله , أما التضرع بالجوارح فهو تطهير الجوارح من اقتراف ما نهى الله ورسوله عنه . وهو بالتوبة ورد المظالم إلى أهلها والعزم على أن لا يعود ولو صرفه الله بكن , وأن يعتقد فى تطهير الجوارح أن الفاعل المختار هو الله تعالى بكل من فى السموات والأرض من الإنس والملائكة عبيد مربوبون وعباد مقهورون لا يقدرون جميعا على أن يجلبوا خيرا لواحد لم يكن الله مقدرة ولا أن يدفعوا شرا ولو عن أنفسهم " **وَخُفْيَةً** " أى من غير إظهار يشوبه الرياء والسمعة والشهرة , فان تلك المعانى تشغل فراغا كبير من القلب تجعله يحجب عن نظر الله تعالى إليه .

([1]) سورة يسن آية : 82 .
([2]) سورة الإسراء آية : 43 .
([3]) سورة النمل آية ك 62 .

ومن أدب الدعاء بعد ما تقدم كمال اليقين بالفوز بإغاثة الله تعالى أما فى الدنيا و أما فى الآخرة , فان العبد المؤمن ما دعا الله حاجة إلا و أسرع فى إجابته او حفظها له حتى يلقاه يوم القيامة فيعطيه الله خيرا مما كان يسأله فى الدنيا حتى يتمنى العبد أن كان لم يعط شيئا مما يسأله ربه فى الدنيا , وان السلف الصالح كان إذا سأل الله تعالى قال حاجته بكلام قليل وصوت خافت فاطمأن وانشرح صدره , يسر الله له أمره .

وهناك مقام أعلى من هذا مستنبط نم قوله ε فى الحديث القدسى , قال الله تعالى **"من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته اكثر مما أعطى السائلين "** ومن السائلين من يسأله النظر إلى وجهه الكريم . وفى هذا الحديث دليل على أن الله تعالى يعطى المشغولين بذكره اكثر من النظر إلى وجهه الكريم وهو الأنس بالله على بساط كرامته .

" إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " أنكر بعض العلماء المحبة لأنهم لم يذوقوا منها ولا حبة , ذلك لأن الله تعالى أخبرنا بأنه يحب قوما بأعيانهم وأنه يحبهم بدليل قوله تعالى **" يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه "** واخبرنا سبحانه فى هذه الآية **" إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ "** . فأثبت محبته لقوم ونفاها عن آخرين , ونفيهم محبة الله للعبد لأنهم حكموا أن المحبة متجانسة ولا مجانسة بين الله وخلقه , ولو عرفوا أنفسهم لعرفوا ربهم ولشهدوا غيب المحبة منه سبحانه لهم .

والمحبة مجاراة لهم على قدر عقولهم هى اللارادة , فإرادة الله الخير الروحانى للعبد هى محبة الله للعبد , أرادته سبحانه الخير الكونى له هى رحمته , فالمحبة ارادة والرحمة أراده , فثبت أن الله يحب من اجتباهم واصطفاهم لنفسه من خير خلقه ولا يحب من حجبهم عنه وقدر لهم السوء أزلا , ومعنى **" إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ "** أى لا يرد الخير الروحانى لمن اعتدى على نفسه فظلمها بعدوله بربه وبتحريمه ما أحله الله , وبنأيه بجانبه عن جانب الله تعالى , وبتكبيره على دعائه سبحانه غفلة بما تفضل به جل جلاله عليه من نعم الكون العديدة الواسعة , ومن كانت نعمة الله إليه سببا فى كفره وضلاله فهو الظالم لنفسه .

قوله تعالى **" وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ "**(56) .

تأويل هذه الآية أن الله تعالى يبين لنا أنه بعث الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لتسكنه النفوس وتثقيف العقول وتطهير القلوب من الشك والشرك وتطهير الجوارح من المعاصى , وبذلك تصلح الأرض ومن فيها فيعيش الإنسان أخا للإنسان لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه , ويكون كل مسلم يؤثر أخاه على نفسه إيثارا لله تعالى ولرسوله ε , فيدوم للإنسان العافية والأمن ويتيسر له القوت , و إفساد الأرض بعد إصلاحها أن يفسد الطاعات بالمعاصى وقد اصلح الله لنا الأرض بما تفضل سبحانه من نسيم عليل وماء نمير , وتربة خصبة , ومعادن صالحة للصناعات , وعقول مخترعة للآلات والأدوات , و أيد مواتية لعمل ما تخترعه العقول , وهذا الإصلاح لضروريات وكماليات الإنسان , والإصلاح الخاص هو بطاعة الله تعالى واتباع شريعته , وذلك بعقد القلب على العقيدة الحقة , والقيام بالعبادات التى هى شكر الله تعالى على نعم لا تحصى , ثم حسن معاملة الخلق أى تعاملهم بما تحب أن تعامل به نفسك قال عليه الصلاة والسلام **"أحب لأخيك ما تحب لنفسك"** .

وبتلك العقيدة الحقة يسخر الله لك ما فى ملكه وملكوته وبتلك العبادة الخالصة يمنحك الله المشيئة فى العمل والوسعة فى الأرزاق والبركة فى الأولاد مع دوام العافية والأمن والقوت , وبإفساد الطاعات بالمعاصى تمسك السماء أمطارها , وتقذف الأرض بأوبائها , ويقود الشيطان الطغاة والغواة وينفخ فى بوق الحزازات حتى تقع الخصومات والحروب وتصبح الأرض جرداء لا

نبات بها , حتى تنسخ الحقائق الإنسانية فيصبحون كأنهم وحوش كاسرة فى غابات موحشة فيصابوا فى الدنيا بشظف العيش وفقد الأمن وآلام الحروب والمشاحنات , وفى عذاب أليم يوم القيامة بمعاصيهم أوامر الله تعالى وهذا هو فساد الأرض بعد إصلاحها وقد تبين إن إصلاح الأرض لا يكون إلا بالرسل عليهم الصلاة والسلام بدليل قوله تعالى " **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** "([1]) ولا إيمان ولا تقوى إلا برسول يدعو الناس إلى الله على شريعته , ومن افسد الأرض فطر على الإفساد فافسد فى ارض القلوب حتى جعت القلب مكانا للشيطان لا تصعد منه إلا بواعث المعاصى ودواعى الأمل والطمع والحرص ومقتضيات البخل والشح , ولا ينبت فيه إلا حنظل الشوك والرياب , وألم غيلان النفاق والشر . أما قلوب أهل الإيمان فهى ارض غرسها التوحيد والحب والإخلاص وثمرها الرضا عن الله والتوكل عليه ..

" **وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً** " رب ظان يظن إن هذه الآية هى المتقدمة على قوله تعالى " **ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً** " الآية ... والحقيقة إن الآية الأولى أنزلها الله تعالى لبيان الأدب فى الدعاء , وهذه الآية الثانية لما يجب أن يكون عليه الداعى فان قوله تعالى " **خَوْفاً وَطَمَعاً** " يدل على أن الداعى الذى يتوقع وقوع ضرر أو فقد محبوب أن يسأل الله تعالى خائفا موقنا بالإجابة " **وَطَمَعاً** " الطامع هو الذى يرجو قبول أعماله , أو رواج تجارته , أو فوزه بالجنة , أو بنجاح قصده أو تأييده فى شأن من شئونه , أو نصرته على عدوه , وهذا الداعى يجب أن يكون طامعا فى دعائه أن يستجيب الله له وهذا تعليم من الله تعالى لعباده ما به يفلحون فى دنياهم وأخراهم .

" **إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** " اى أن أرادة الله قريب وذكر الله قريب مع أن المبتدأ مؤنث فالتأنيث هنا ليس حقيقيا , والمحسن هو من مكنه الله تعالى من مقام الإسلام والإيمان والإحسان , وهو الذى يعبد الله كأنه يراه فأن لم يكن يراه فأنه يراه على يقين أن الله يراه وبعيشك هل تظن أن محسنا على يقين من أن الله يراه حيث كان يعصى الله تعالى عالما بعقوبة المعصية التى هى عنده أشد من حريق النار , وتلك العقوبة هى الحجاب عن الله , والحرمان من مزيد الإيمان وفى حديث البخارى بسند عمر من أن جبريل سأل رسول الله " ε " فقال" **ما الإحسان** " فاجبه ε " **الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فأنه يراك**" . وليس بين المحسن وبين وحمة الله تعالى إلا أن يدعو الله تعالى بلسانه أو بقلبه وسره .

قوله تعالى " **وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** "(57) .

الواو هنا للعطف والجملة معطوفة على قوله تعالى "**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ** " , و إرسال الرياح أى يجعلها مرسلة إلى حيث شاء , والرياح جمع ريح وهى أربعة :-

1. الصبا وهى الريح الشرقية .
2. والدبور وهى الريح الغربية .
3. والشمال وهو معلوم

والجنوب وهما الرياح المعلومة , وللرياح تياران أصليان , وباقى التيارات تتولد منها .

1. تيار ينبعث من خط الاستواء صاعدا إلى العلو فى المنطقة المحترقة , حتى يصل إلى الأثير فى منطقة الزمهرير فيسقط متجها إلى الشمال , حتى يصل إلى القطب

([1]) سورة الأعراف آية : 96 .

الشمالى فيثقل لشدة البرودة هناك فيمر على البحار والبلدان فى تلك المنطقة فيحفظ الله به الحيوانات والأسماك , ويرجع بسرعة شديدة مارا قرب الأرض من شمال أوروبا , فيعطى ما فيه من الحرارة حيث مر , ويتشبع بالبرودة حتى يمر على البحر الأبيض وما جاوره فياتى إلى درجة البرودة فى أيام الشتاء , عليلا بليلا فى أيام الصيف , ويكتسح أوساخ الأرض وما يتصاعد منها من الأبخرة الرديئة حتى يصل إلى خط الاستواء حيث معمل التطهير فتقتل حرارة المنطقة المحترقة ما فيه من الميكروبات , ومن الفيروسات الدقيقة جدا الذى ساقه أمامه ليطهر الأرض منه , وحفظ سكانها من ضرره , ثم يرتفع هذا التيار كما أرتفع أولا ويمر فى مداره الأول وهكذا .

2. والتيار الثانى يصعد من خط الاستواء أيضا الى الدرجة التى ذكرناها ثم يميل إلى الجنوب حيث القطب الجنوبى وهذا عمل التيارين المستمر أبدا .

أما الرياح التى تتولد منهما فان درجة الحرارة قد تنزلها فى جهة من الجهات فتصدم بجبل شاهق فلا تقوى على نتق الجبل , فتتجه بسرعة الى الشرق والى الغرب فتتولد رياح شرقية وغربية , وقد تنخفض حرارة الجو فيثقل التيار وينزل من الأعلى للأسفل فيصطدم مع التيار الآخر فتحصل الزوابع والعواصف , بسبب اختلاف وجهة كل منهما . وكذلك الرياح الموسمية التى تهب فى فصل مخصوص من السنة على البحار العظيمة فتساعد التجارات قبل اختراع السفن البخارية .

والريح هو عنصر الحياة الوحيد فوق كل العناصر بحيث لو افتقد نفسا لهلك كل حى , ولقيمته هذه فلا تجد أجواف البحار إلا وفيها هواء و المغارات والكهوف والآبار العميقة أيضا ممتلئة بالهواء , ولله نعمة على الإنسان فى كل زفير وشهيق قيمتها الحياة , والإنسان المتوسط يتنفس سبعين مرة فى الدقيقة فالله تعالى ينعم فى كل دقيقة بالحياة التى هى فوق المال والولد .

ولذلك فتلك الآية من أقوى دلائل التوحيد , وقد عطفها الله على قوله تعالى " **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ** " الآية ليثبت أنه هو الموجد لجميع العوالم فلا إيجاد إلا به , ثم يقيم الحجة سبحانه أنه هو الذى أمد العوالم بما لا قوام لحياتهم إلا به , ومن اعظم ما أمدهم به وأمسهم لضروریاتهم هى الرياح التى يرسلها جل جلاله بحيث لا يخلو منها مكان ولا أناء وأن فوق جسم الإنسان هواء لو وضع بدون أن يخفف ثقله عن الإنسان لدك الجبل فضلا عن أن يضغط على الإنسان فيجعله كلوح الصفيح , ولكن الله تعالى جعل الهواء يحمل بعضه بعضا حتى يحمى الإنسان من شدة وقعه , فدلائل التوحيد أوضح من الشمس فى رائعة النهار وأجلى للإنسان من هيكله لنفسه , ولكن القدر تقدير القاهر فوق عبادة , فالموازين موازين القسط والآيات جلية والحجج قوية والعبد مقهور ولا حول ولا قوة إلا بالله والحجة البالغة على خالص التوحيد هى حجة الإيجاد وحجة الإمداد والحجتين كما قررنا هما رسالة التوحيد .

" **بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** " " و **بُشْراً** "جمع بشرى , و قرئت بشرى , ومعناها اللغوى الطيب " **بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** " أى مقدمة رحة , لأن العرب تقول جاء كذا بين يدى كذا – أى متقدمة عليه – " **يَدَيْ رَحْمَتِهِ** " هو المطر " **حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً** " . أقلت سحبا ثقالا أى حملت وهى الرياح , ويقال فلان اقل كذا أى خفف عليه وحمله , ومن حمل أى شىء أقله أى صار خفيفا عليه ولو كان ثقيلا , لأن ما يحمل يخف , وهنا "**أقلت**" أى حملت

" **وسحابا** " معناه المسحوب بالهواء مأخوذة من السحب وهو القمام الذى يكون فى العلو , وهو يكون خفيفا وثقيلا , أما الخفيف فقد يكون أبخرة مائية متصاعدة ليست من المعصرات ولكنها بيضاء متقطعة , إما سحابا ثقالا , فالسحاب جمع سحابه ,وإنما ذكر ثقالا رعاية للفظ أى سحابا فيه ماء غزير " **سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ** "أى سقنا الماء بالهواء , والسائق له هو الذح رفع السماء بغير عمد تراها .

وهنا حجة خفية من حجج التوحيد أن سوقه إلى البلد الميت لابد وان يكون بتدبير و إرادة سابقين لا عبثا , وهذا أمر محسوس ملموس فأنا نرى الصحارى والواحات إذا سكنها الإنسان ساق الله إليه الماء , ونرى أن البلدان التى تجرى فيها الأنهار تقل الأمطار ,وكل هذا دليل على قدرة وحكمة الفاعل المختار جل جلاله , وعلى كمال إمداده لعباده بما هم فى أشد الضرورة إليه , ومعنى بلد ميت أى جدب مجردا من النباتات والثمار والفواكه " **فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء** " أى بالبلد الميت وفى قوله . " **فَأَنزَلْنَا** " حكمة عالية لأنه لو قال " **فنزل به الماء**" لحفر الأرض وأهلك الحرث والنسل ,ولكنه سبحانه الخلاق أنزله بحكمة نقاطا متتالية لا تضر أرضا ولا تهدم أبنية ولا تمنع هواء فسبحان الخلاق العليم والممد الحكيم . وتلك الآية دليل على قدرته وحكمته جل جلاله وحسن تدبيره .

" **فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ** " أى أن الماء الذى ساقه الله تعالى فى السحاب على متن الهواء و أنزله جل جلاله فى بلد ميت أحياها به سبحانه , و أقام بها دلائل توحيده وعجائب قدرته , فمنها الماء الذى خلقه الله تعالى على الأرض ورفعه بحكمة وقدرة إلى السماء بخارا لطيفا فتكثف فوق الهواء طبقات على طبقات وتحول إلى قطرات لا تعد ولا تحصى من المقادير الهائلة , ومع أنه بغير لون ولا ريح ولا طعم له أخرج الله تعالى به من كل الثمرات المختلفة لونا وشكلا وطعما وحجما ومذاقا , يحتاج كل نوع منها إلى لون يلونه , و أريح يعطره ورائحته , وطعم يجعل له مذاقه ,ومع ذلك فان هذا الماء الواحد التى تسقى به تلك الأنواع من النباتات هو بذاته يعطيها ألوانها وأشكالها وطعامها , فهو مصبغة تصبغ , وآلة تنقش فتبدع , وقوالب تشكل , ودنان من الروائح مختلفة ليقيم الحجة علينا أنه هو الواحد الأحد الذى أبدع هذا الكون المتضاد فى حقائقه وعناصره , ومن أنكر القدرة على الغيب المصون , قصم ظهره الماء الذى لا لون ولا طعم ولا رائحة والذى أخرج الله به الأنواع الكثيرة والألوان العديدة والأحجام المختلفة .

قوله تعالى " **كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى** " أى كما أننا أخرجنا النباتات والأشجار وكل الثمرات والفواكه من الأرض الميت , ونخرج الموتى , ووجه الشبه فى هذا كما ورد أن الله تعالى بعد النفخة الأولى ينزل مطرا كمنى الرجال أربعين سنة , أو أسبوعا ,أو يوما على الأرض فتصير عجينة سائلة , ثم تلتهمها رياح أربع فترج الأرض رجا فتقطعها من كل ناحية فيها , ومن شدة هذا الرج تمر قطع الإنسان ببعضها فما مرت قطعة بأخرى إلا اتصلت بها حتى يعود الهيكل الإنسانى كما كان , ويقوم الموتى طبقا فوق طبق من لدن آدم إلى يوم القيامة . بجسمها لا تنساه ولا تغيب عنه لأنه بيتها الذى عاشت فيه عمرها الكونى ,وهذا معنى قوله " **كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى** " أى نخرجهم من القبور أحياء كما أخرجنا ثمرات كل شىء بالماء . وهذا هو الدليل القرآنى الملموس المحسوس الذى نراه كل نهار , ولكن قتل الإنسان ما اكتفره تتجلى له الآيات تلو الآيات وليس له نظرة عبرة يعتبر بها , أو عين بصيرة يبصر بها آيات الله فى نفسه وفى الآفاق حوله " **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** " "**لعل**"هنا بمعنى

اللام , أى لتتذكروا ما بينه الله لكم فى أنفسكم وفى الآفاق من حكمته وبدائع إبداع صنعه بعد أن بينه لكم خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم بما جاءكم به من عنده .

قوله تعالى **"وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ "** (58).

معنى **" وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ "** أى الصالح أرضه الخصب تربيه اذا أنزل الله عليه الماء **" يَخْرُجُ نَبَاتُهُ "** خضرا , قد أخرج شطاه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع , لأن الله قدر أن يجعل من الأرض قطعا خصبة طيبه صالحة لإخراج الزرع إذا أنزل عليها الماء الطهور من السماء . قوله تعالى **" وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً "** أى والبلد الذى خبثت تربته لا يخرج زرعه إلا نكدا خبيثا مع المشقة والعناء , وهذا مثل ضربه الله لأهل الإيمان به ولأهل الكفر به , فشبه قلوب أهل الإيمان بالتربية الطيبة التى إذا انزل الله عليها ماء إحسانه بالدعوة إليه على السنة الرسل وورثتهم من العلماء , ظهر أيمانهم بأذن ربهم , فأثبت التصديق مؤيدا باليقين والمسارعة إلى تأدية ما أوجبه تعالى وما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم , وانبت شجر التوبة والإنابة والمحبة والتوكل على الله والإخلاص لذاته .

قوله تعالى **" وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً "** أى ان الله تعالى مثل قلوب أهل الكفر به والنفاق بتربة خبيثة ملحة غير صالحة للزرع تفسد ما يلقى فيها من كلمات الدعوة , فإذا دعى أصحاب تلك القلوب صمت آذانهم عن سماع البيان , وغشيت أعينهم فلا ترى الآيات , و أقفلت قلوبهم عن قبول الدعوة , ويا ليتهم يقفون عند ذلك بل تنبت تلك التربة **" السعدان وأم غيلان"**([1]) وما أشبههما من النباتات الشائكة الضارة , وتلك النباتات بالنسبة للتمثيل هى الإنكار والتكذيب والعناد إلى أن تقع الحروب الدامية أعاذنا الله من سوء القدر , لأن هذه الآية دليل واضح على أن الله قدر الهدى والإضلال من الأزل .

قوله تعالى **" كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ "** اى كما صرفنا آيات الأكوان تصريف بيان و إقناع فكذلك نصرف آيات القرآن للبيان والإقناع أيضا , و لكن هذا التصرف مع إقامة الحجة ووضوح المحجة لا يقبله إلا الشاكرون , والشكر من عرف النعمة بالمنعم فيشكرونه على نعمته , و أما أهل الكفر بالله فيجهلون أنفسهم ويجهلون ما أحاط بهم من نعم الله التى لا تحصى فليسوا من أهل الشكر , و إنما قال هنا **" لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ "** إشارة إلى أن تلك الآيات فصلت بعض ما أنعم الله به علينا فناسب هنا أن يذكر الشاكرين .

قوله تعالى **" لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ "**(59) .

بعد أن بين سبحانه أنه أرسل حبيبه محمدا **"صلى الله عليه وسلم"** رسولا يبلغ ما أرسله به **" صلى الله عليه وسلم "**لعامة الخلق و أقام الحجة بالمعجزات وبما أنزله عليه فى الكتاب العزيز من الآيات البينات , بين سبحانه وتعالى أخبار الرسل السابقين عليهم السلام لتكون ذكرى وعبرة للناس ومعجزة كبرى لرسوله **" صلى الله عليه وسلم "** لأنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب وبين جاهلية عمياء صماء ولم يتعلم من أحد فوجب أن تكون أخبار الرسل السابقين بعشرات القرون دالة على أن هذا الكلام من عند الله وأن من جاء به وبتلك الأخبار

([1]) السعدان نبات لا يستسيغ أكله سوى الإبل , وأم غيلان شجر السمر الملتف الذى يصلح مكانا تختبأ به الوحوش لاغتيال فرائسها كما يطلق على الغدر والخيانة .

لرسول صادق من عند الله . وقد أنزل الله عليه"**صلى الله عليه وسلم** " من أخبار الغيب ما حصل بعد رفعه إلى الرفيق الأعلى , فكان خبره عن الرسل والملوك السابقين معجزة عظمى وخبره عن الاحداث التى حصلت بعد رفعه معجزة كبرى .

و ابتداء الكلام فى هذه الآية بأخبار نوح عليه السلام وهو نوح بن ملك بن متوشلخ بن أخنوح وهو " إدريس " النبى عليه السلام .

فمعنى قوله تعالى " **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ** " " **اللام** " للقسم " **وقد**" للتحقق " **وأرسلنا** " أى بعثنا " **نوحا**" هو أول رسول جاهد قومه فى الله جهادا كبيرا . " **فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ** " أى بعد أن أرسله الله وجاء قومه فقال : " **يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ** " أى اجعلوا عبادتكم خالصة لله الذى هو الإله الحق الواحد الأحد " **مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ** " أى ليس لكم من أله يستحق العبادة حقا إلا هو سبحانه .

وجائز أن تكون المعنى ليس لكم من أله غيره , بجر الراء , لأن المراد من الإله أنه هو الغنى عما سواه و المفتقر إليه كل من عداه حتى تتحقق ألوهته , وكل ما اختذتم من دونه يضر ولا ينفع , أما يضر فلأنكم تضيعون وقتا فى صنعه بأيديكم , و أما كونه لا ينفع غيره من الصفات التى تفيض النفع , فأقام الحجة عليه السلام واضحة جلية محسوسة ملموسة . ولكن القلوب عليها أقفالها وآذانهم فيها وقر , وعلى أبصارهم غشاوة , فمن أين ينفذ إليهم النور . قال تعالى " **قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ** " ([1]) .

" **إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** " فى هذه الآية تهديد للكافرين , وفيها بشائر ضمنية للمؤمنين , والمعنى أنكم كذبتمونى وأنكرتم ما دعوتكم إليه . لذلك أنى أخاف عليكم الطوفان أو يوم القيامة و فانه عليه السلام كان نجارا وكان يصنع سفينته , وكان القوم إذا مروا به سخروا منه لأن بلادهم ليس بها أنهار ولا بحار ,فعمله هذا أمامهم كان يجعل للشيطان سلطانا عليهم , فلم يقدر الله لهم أن يتعقلوا ما جاء به نوح عليه السلام .

قوله تعالى" **قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ**" (60)

" **الْمَلأُ** " أكابر مجرمى القوم ومردتهم " **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ** "أى أنا لنراك تعمل أعمال الضالين الذين لا يهتدون إلى عمل معقول بصنعك السفينة فى أرض مجردة عما تجرى فيها " **و مُّبِينٍ** " أى جلى ظاهر للعيان .

قوله تعالى " **قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** "(61) .

" **قَالَ** " هنا استئناف والمنادى معطوف و" **لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ** " . أى عملى هذا ليس عمل الضال التائه ولكنى اعمل عمل العقلاء المهتدين الذين يعلمون عاقبة الأمور , يعلمون عاقبة أمورهم باطلاع الله إياهم على الغيب لانى " **رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** " أى مرسل من قبل الله تعالى وهل يوجد إنسان أهدى ممن يرسله الله تعالى لهداية قومه ونجاتهم من مغبة الشرك والكفر .

قوله تعالى " **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** "(62) .

هذه الآية بيان من الله تعالى لنا عن قول نوح لقومه ردا على قولهم له أنا لنراك فى ضلال مبين , فقال لهم يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين " **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي** " فأخبرهم انه مرسل من قبل الله تعالى إليهم , وأنه عليه السلام يبلغهم أى يتلو

([1]) سورة آل عمران آية : 73 .

عليهم ما أنزله الله إليه من الكتاب الذى أرسله لتبليغهم إياه , وأنه عليه الصلاة والسلام ينصح لهم **"والنصح"** هو رفا ما شق من الثوب لإصلاحه , **" والنصيحة"** هى بيان ما به إصلاح الحال فى الدنيا والآخرة , ومنه التوبة النصوح أى الخالصة , واللغة الفصحى أن نصح تتعدى باللام كما ورد فى هذه الآية ." **وَأَنصَحُ لَكُمْ** " ..

" **وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** " أى وأعلم من الله ما أخبرنى به مما يحبه ويكرهه , ومما وعد به المؤمنين من النعيم المقيم , وما توعد به الكافرين من أليم العذاب يوم القيامة , ومالا تعلمون لأن معلوم هذا العلم غيب عن أن تعلمه النفوس ولا العقول ولا الحس ولا الجسم إلا برسول يعلمه الله لكى ينقع قومه به أو يقيم به عليهم الحجة .

وهذه الآية أثبتت أن وظيفة الرسل عليهم الصلاة والسلام أنهم حملة رسالات , وأنهم يبلغون رسالات الله للعالم , وفى أنهم ينصحون لأممهم , وفى انهم يبشرون المؤمنين بما وعدهم الله تعالى , وينذرون الكافرين بما توعدهم الله به وذلك بعلم خصهم الله دون عباده , وقد أخبرنا الله عن خاتم أنبيائه بأنه سبحانه أرسله يتلو علينا آيات الله ويعلمنا الكتاب والحكمة ويزكينا ويعلمنا ما لم نعلم بأنفسنا ولا بغيره صلى الله عليه وسلم , وبهذا ثبت أن الله أنفرد بالعلم دون غيره فهو العليم بذاته جل جلاله لا بتعليم , ومن عداه فانهم لا علم لهم إلا بمعلم حتى الملائكة فانهم أثبتوا لأنفسهم الجهل إما ربهم بقولهم " **سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا** " فأقام عليهم الحجة بآدم جعله معلما بقوله تعالى " **قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ** " ([1]) .

قوله تعالى " **أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** " (63) .

هذه الآية أيضا مما اخبرنا الله به قول نوح لقومه بعد أن كذبوه و أنكروا عليه ولم يقبلوا نصيحته فى الله وقالوا "**مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ** " ([2]) . فرد عليهم بقوله عليه السلام . " " **أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ** " . " **الهمزة** " للاستئناف " **والواو**" مفتوحة للعطف " **وعَجِبْتُمْ** " أى استعظمتم مجىء ذكر من ربكم من آيات تذكركم ربكم الذى خلقكم و أمدكم بما أحاط بكم من النعم التى لا تحصى لتؤمنوا به وتشكروه " **عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ** " مع رجل منكم مجانس لكم يعلمكم بقوله وعمله ما يحبه الله تعالى منكم , يتكلم بلغتكم حتى لا يكون لكم حجة على الله بعد الرسل " **لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا** " أى ليخوفكم عقوبة الله تعالى إذا أنتم كذبتم رسله ولتتقوا الكفر بالله ومخالفة رسله عليهم السلام" **وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** " أى ولترحموا بسبب أيمانكم فتكونون من أهل الرحمة . وتقدم الكلام عن الرحمة .

قوله تعالى " **فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ** "(64) .

هذه خبر من الله تعالى ينبئنا فيه بتكذيب قوم نوح له وبانتقامه منهم بقوله " **فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ** " وفى قوله " **فَأَنجَيْنَاهُ** " دليل على محذوف ملحوظ , فأن نجاته عليه

([1]) سورة البقرة آية : 33 .
([2]) سورة هود آية : 27 .

السلام ومن معه لا تكون إلا من قيام قومهم عليهم ليؤذوهم ويضروهم ويشددوا عليهم , وكان الله تعالى يقول " **فَأَنجَيْنَاهُ** " وتلك النجاة لا تكون إلا من الشدائد العظام , وكيف لا وقد مكث يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما , وفى قوله " **وَالَّذِينَ مَعَهُ** " دليل على أن من كانوا معه كانوا من أخلص الناس لله تعالى حتى عطفهم عليه تعظيما لشأنهم و" **فِي الْفُلْكِ**" أى فى السفن الذى أمره الله تعالى بصنعه وسيأتى الكلام عليه بالتفصيل عندما يأتى ذكره .

" **وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا** " وهم قوم نوح لأنهم لم يقبلوا منه ما جاء به من عند الله كفرا به سبحانه وظلما لأنفسهم . " **إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ** " أكد الآية بحرف التوكيد , لان عماهم كان متأصلا فيهم لم يحدث عليهم " **وعَمِينَ** " أى عمى البصائر , لان عماهم فاقد البصر يسمى أعمى فاقد البصيرة يسمى عمى وجمع عمى عمين أى أنهم ليست لهم بصائر تقبل آيات الله وتتدبر فى بيناته فكذبوا نوحا عليه السلام وحاربوه خصوصا مردتهم من الإنس .

قوله تعالى " **وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ** "(65) .

بعد أن قص الله أخبار نوح وقومه ليقيم الحجة القاصمة لظهور كفار قريش الذين كانوا فى جاهلية عميان صماء وبينهم نشأ محمد بن عبد الله ولم يسبق له دراسة ولا تلقى علوما , إلا أن الله تعالى صاغ روحه الطاهرة من نوره المقدس فكان يكره "صلى الله عليه وسلم " من طفوليته ما عليه قومه , ويحب الخلوة والبعد عن الناس حتى جاءه الوحى وهو فى غار حراء , وكان إذا أتاهم بأخبار الرسل والملوك حيرهم فيه , وهنا يخبرنا الله تعالى عن قوم هود عليه السلام , بقوله تعالى " **وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً** " أى وكما أرسلنا نوحا إلى قومه أرسلنا همدا إلى قوم عاد , الذين كانوا فى أرض اليمن شرقا , وكانوا طوال الأجسام غلاظها , وفى ثراء من المال والخير فشيدوا القصور العاليات وطغوا فى الأرض وأفسدوا فبعث الله إليهم هودا بما أخبرنا الله به عنهم , بقوله " **قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ** " قد تقدم الكلام في خبر الله تعالى عن نوح من تأويل معان يا قوم اعبدوا الله وما لكم من أله غيره , و" **أَفَلاَ تَتَّقُونَ** " هذه الكلمة التى قالها هودا عليه السلام , والفرق بينها وبين ما قاله نوح عليه السلام أن نوحا أنذرهم عقوبة الله بالطوفان لما كانوا عليه من العناد والكفر مع كثرة تردده عليهم لدعوتهم الى الله تعالى , وما بلغه قوم نوح فقال لهم " **أَفَلاَ تَتَّقُونَ** " عقوبة الله ووعيده وتؤمنون بما جئتكم به من عنده .

قوله تعالى " **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** "(66) .

فذكر الذين كفروا هنا دليل على أن كثيرين من قوم هود قد آمنوا به , والذين كفروا قالوا " **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ** " ولم يقولوا فى " **ضلال مبين**" كما قال قوم نوح عليه السلام , لأن هودا لم يعمل أمامهم عملا تحكم عقولهم به عليه بالجنون والضلال كصنع نوح السفينة فى أرض لا أنهار بها , ولكن هودا عليه السلام كان ينكر عليهم عبادة الأصنام , ويحكم على آبائهم السابقين بالكفر فقالوا " **قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ**

الْكَاذِبِينَ " والظن به العلم قال الله تعالى " **الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ** " ([1]) أى يعتقدون .

قوله تعالى " **قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** "(67) .

معنى هذه الآية سبق الكلام عليها فى الآية السالفة .

قوله تعالى " **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ** "(68) .

تقدم فى قصة نوح عليه السلام أنه قال " **وانصح لكم** " فذكر النصيحة بالفعل ليفيد التجدد والاستمرار . وفى قصة هود قال " **وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ** " فذكر النصيحة بلفظ اسم الفاعل ليفيد التجدد , وأن النصيحة واجبة لله من المؤمن بالله لنفسه وللناس أجمعين , ونصيحة الناس واجبة خصوصا لمن استنصحوه وصدقوه , ومن اخبر من يصدقه وهو كاذب فصدقه الناس أهلك نفسه و وقوله " **أَمِينٌ** " أى صادق ولا أخون فى تبليغ الرسالة عن الله تعالى .

قوله تعالى " **أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** "(69) .

تقدم الكلام على هذه الآية فقوله تعالى " **وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً** " تأويل هذه الآية أن تذكروا أنكم خلف قوم نوح الذين كذبوه وحاربوه فانتقم الله منهم فأغرقهم فى الطوفان فآمنوا بالله تعالى لتحصنوا أنفسكم من نقمته سبحانه التى أصاب بها قوم نوح , والله تعالى قد تفضل عليكم فزادكم فى الخلق بسطة , قال بعضهم أن طول الرجل منهم كان يبلغ ستين ذراعا وكانت رأس الرجل منهم كالقبة , وتلك النعم توجب الشكر عليهم لمن تفضل وأحسن , ولا شكر إلا بعد التوحيد .

" **فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** " أى اذكروا آلاء الله التى أنعم بها عليكم "**والذكر** " هنا الشكر , لان الإنسان إذا تذكر نعم الله تعالى شعر بأنه سبحانه تفضل عليه وهذا هو الشكر . " **لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** " أى ليحصل لكم الافلاح وهو نيل المقاصد كلها فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى" **قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** "(70) .

بعد أن بين هود لقومه ما أبلغه ربه , وأقام الحجة لله تعالى عليهم أبوا أن يقبلوا منه , وأخبرنا الله بذلك فى قوله " **قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** " أى أنهم استبعدوا أن يرسل لهم الله رسولا منهم يأمرهم بترك ما كان عليه آباؤهم وبعبادة الله وحده جل جلاله , وذلك من حيث طباعهم وعمى بصائرهم " **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** " وبلغ بهم ظلمهم لأنفسهم وتكذيبهم بآيات الله أن قالوا ما أخبرنا الله به عنهم مما لا يقوله إلا المستهين بالله ورسله وهو قولهم " **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا** " أى ثبت لدينا ذلك حتى اعتقدنا انك لا تقدر أن تأتنا بما تهددنا به , فاتنا بما تعدنا إن كنت صادقا فيما تقول .

([1]) سورة البقرة لآية : 46 .

قولـه تعـالى " **قَـالَ قَدْ وَقَـعَ عَلَـيْكُم مِّـن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَـادِلُونَنِي فِـي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ** "(71) .

معنى الآية الشريفة . أن الله تعالى أخبرنا عن قولهم الذى قالوه لهود عليه السلام و وهذا قول هود لهم , ومعناه قال استئنافا " **أَتُجَـادِلُونَنِي فِـي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا** " , أى أتخاصموننى فيما صنعتموه بأيديكم من الأصنام التى سميتموها بأنفسكم أنتم وآباؤكم , وما أنزل الله بها من حجة ولا دليل ولا إثارة من علم .

" **فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ** " هذه الآية خبر من الله تعالى عن قول هود لقومه " **فَانتَظِرُواْ** " أن انتظروا وعيد الله تعالى الذى واعدكم به .

قوله تعالى " **فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ** "(72) .

تقدم فى الآيات السابقة قوله عن نوح وقومه " **فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا** " , وفى هذه الآية الشريفة يخبرنا بقوله " **فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ** " الآية , والمعنى فأنجينا هودا والذين قبلوا ما جاءهم به من توحيد الله تعالى والإخلاص فى عبادته والإيمان بما أخبر به سبحانه والمسارعة إلى محابة و مراضيه جل جلاله كما أنجينا نوحا وقومه من قبل .

وقوله " **وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا** " أى واستأصل سبحانه بالنقمة الذين كذبوا هودا بما سنبينه بعد فى شرح قصته معهم كما أهلك قوم نوح بالطوفان . " **وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ** " نفى عنهم الإيمان الذى به النجاة فثبت الهلاك بكفرهم بالله تعالى , وهنا نشرح قصة هود مع قومه , قوم عاد الذين اخبرهم الله عنهم بأنه أرسل لهم هودا يدعوهم إلى توحيد الله تعالى والعمل بمحابه ومراضيه هم أبناء عاد أرم بن عوض بن سام بن نوح , وكانت مساكنهم "**الشطر** " من أرض اليمن وما والى بلاد حضرموت إلى عدن , وكان قوم عاد قد مشوا فى الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله , وكانوا أصحاب وثان يعبدونها من دون الله , صنم يقال له صدا , وصنم يقال له صمود , وصنم يقال لى ألهبا ,فبعث الله هودا وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موضعا , فأمرهم أن يوحدوا الله ولا تجعلوا معه آلها غيره , وان يكفوا عن ظلم الناس , ولم يأمرهم فيما يذكر بغير ذلك , فأبوا عليه وكذبوه , واتبعه منهم أناس قليلون يتكتمون إيمانهم خوفا من قومهم , وكان ممن آمن به وصدقه رجل من عاد يقال له – مرتد بن سعد بن عفر – وكان يكتم أيمانه .

ولما عتوا قوم هود عليه و أصروا على تكذيبهم له بغيا وظلما وكانوا يبنون بكل ريع آية عبثا بغير نفع , كلمهم هود . فقال لهم ما أخبرنا الله به فى قوله تعالى " **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَـةً تَعْبَثُـونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَـانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُـدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّـارِينَ. فَـاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** " ([1]) , فلما ظلوا على كفرهم وظلمهم حتى أجهدهم ذلك وكان الناس فى ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد , طلبوا إلى الله الفرج منه , وكانت طلبتهم إلى الله عند بيته الحرام بمكة , فأرسلوا وفدا من سبعين رجلا فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو ظاهر مكة فأنزلهم و أكرمهم و أقاموا لديه شهرا , وقال بعضهم لبعض يا قوم إنما بعثكم

([1]) سورة الشعراء آية : 128 – 129 – 130 – 131 .

قومكم يتعوذون بكم من هذا البلاء الذى نزل بهم وقد أبطأتم عليهم , فادخلوا هذا الحرم فتعوذوا بالله مما نزل بكم فقال مرتد بن سعد أنكم والله لا تسقون بدعائكم , ولكن أن أطعتم نبيكم وأنبتم إليه سقيتم , وبهذا أظهر إيمانه بهود , وعند ذلك قال لهم جلهة حال معاوية بن بكر حين سمع قوله وعرف إيمانه بهود " احبسا عنا مرتد فلا يقدمن معنا مكة فانه اتبع دين هود " ثم ولوا وجوههم إلى مكة , فخرج مرتد من منزل معاوية حتى أدركهم بها فقال " لا ادعوا الله بشيء مما خرجوا له " فلما انتهوا قام يدعوا الله بمكة – وبها وفد عاد قد اجتمعوا – يقول " اللهم أعطنى سؤلى وحدى ولا تدخلنى فى شيء مما يدعوك به وفد عاد وكان قيل بن عمر رأس وفد عاد . وقال وفد عاد " اللهم أعط قيلا ما سالك واجعل سؤلنا مع سؤله " وكان قد تخلص عن وفد عاد – حين دعا اقمان بن عاد وكان سيد عاد – حتى إذا فرغوا من دعوتهم قام فقال اللهم أنى جئتك وحدى فى حاجتى فأعطينى سؤلى .

وقال قيل بن عنز : " يا إلهنا إن كان صادقا فاسقنا فأنا قد هلكنا" فأنشا الله سحائب ثلاثى , بيضاء وحمراء وسوداء , ثم ناداه مناد من السحاب " يا قيل اختر لنفسك وقومك من هذه السحب " . فقال قيل "اخترت السوداء فأنها أكثر السحاب " , فناداه مناد : " اخترت منها رمادا رمدا , لا تبق من عاد أحدا , لا والدا تتركه ولا ولدا , إلا جعلته همدا , الابنى اللوية المهدا , وبنو اللوية بنو نعيم بن هذال بنى هذيله بن بكر , وكانوا مكانا بمكة مع أخوالهم , ولم يكونوا مع عاد بأرضهم , فهم عاد الآخرة ,ومن كان من نسلهم الذين بقوا من عاد , وساق الله السحابة السوداء التى اختارها ابن عنز بما فيها من النقمة , حتى خرجت عليهم من واد , يقال له المغيث , فلما رأوها استبشروا بها و" **قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا** " ([1]) .

يقول الله " **بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا** " أى كل شيء أمرت به , وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها – مهد – فلما تيقنت ما فيها صاحت ثم صعقت .

فلما أفاقت قالوا لها ماذا رأيت " رأيت ريحا فيها كشهب النار وأمامها رجال يقودونها " قال الله تعالى " **سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً** " **"والحسوم"** هى المتتابعة , فما تركت من عاد أحدا إلا أهلكته .

قوله تعالى " **وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** " (73) .

الآية معطوفة على الآيات قبلها " **وثَمُودَ** " مأخوذ من الثمد وهو قلة الماء , وجائز أن يكونوا من أبناء ثمود من أولاد نوح عليه السلام " **أَخَاهُمْ صَالِحاً** " أى أرسل الله صالحا رسولا وكان من قوم ثمود , وكانت مساكن ثمود الحجر بين الحجاز والشام الى وادى القرى وما حوله , وثمود اسم للقبيلة .

" **قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ** " أى ليس لكم اله يعبد غيره وهو الاله الواحد المعبود بحق , ولا تصح العبادة الا له . وقد قامت الحجة لى أنى رسول وأنه هو الله القادر على أن يخلق ما يشاء .

([1]) سورة الأحقاف آية : 24 .

" **قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ** " أى قد أظهر لكم المعجزة الباهرة على صدق رسالتى بخلقه لكم ناقة من هذا الحجر .

" **هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً** " أى هذه الناقة التى لم تولد كما تولد النياق بل خرجت من الجبل أظهره الله لكم برهانا وحجة على صدق رسالتى فهى فى قوله تعالى "**هذا صالح رسولى فصدقوه**" , ونسب الناقة الى الله كما تقول بيت الله وحرم الله تشريفا لها لانها معجزة باهرة " **فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ** " لتظهر لكم فى أكلها وحلبها وسيرها وشربها ما يقوم مقام الحجة على صدقى فى دعوتى , وجزم " **تَأْكُلْ** " لانها جواب الأمر وقرئت بالرفع قوله " **وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ** " أى احذروا أن تمسوها بسوء من قتل أو منع من أكل وشرب لأنها فتنة لكم ابتلاكم الله بها بعد ظهورها , ولم يعد لكم عذر أن تنكروا ما جئتكم به " **فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** " "**الفاء**" هنا للسببية " **يَأْخُذَكُمْ** " منصوبة بأن , والمعنى أن يحل بكم – اذا أنتم مسستم الناقة بسوء – عذاب مؤلم جدا . وهذا الوعيد وان كان من كلام صالح الا أنه بأمر الله لأن النبى لا ينطق عن الهوى .

قوله تعالى " **وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ** "(74) .

تقدم الكلام على هذه الآية فى خبر الله تعالى عن هود, والمعنى واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد اى استحلفكم فى الأرض من بعد قوم عاد الذين أهلكم وبقيت اثارهم تشهد عليهم بانهم كذبوا هودا فانتقم الله منهم , فتذكروا تلك الأحداث العظام وتداركوا أمركم , وقوم عاد هم قوم هود الذين تقدم ذكرهم .

" وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ " **اى ومكن لكم فى الأرض تمكينا جعلكم** " تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً " **اى من أرضها السهلة المستوية قصورا مشيدة بما تنحتوه من جبالها** " وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً " **اى تنحتون بيوتا تأوون اليها , وقصور تظهرون بها عزتكم وكبرياءكم غافلين عن المنعم الذى سخر لكم هذا كله .**

" فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ " **يأمرهم صالح عليه السلام أن يذكروا نعم الله عليهم ذكر حضور ,لأنها نعم محسوسة ملموسة أحدثها الله بعد ان لم تكن "والالآء" هى النعم المتوالية بفضل الله تعالى من أمطار غزيرة , وعيون جارية , وآلات لنحت الجبال بيوتا وذلك لا يكون الا من القوة والتمكين.**

" وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ " **تقدم الكلام عليها ,والمعنى هنا اى لا تسيروا فى الأرض مفسدين لها بسبب كفركم بالله تعالى , فتحبس عنكم الأمطار وتمسك الأرض نباتها فتفسد الأرض ويهلك الحرث والنسل , وبذلك تهلكون انتم أيضا.**

قوله تعالى : " قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ "**(75)**

" **الْمَلأُ** " هو أشراف القوم " **الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ** " أى أبو أن يقبلوا ما جاء به صالح من عند الله سبحانه وتعالى , ومعنى هذه الآية الشريفة أن مردة ثمود المتكبرين على الاسلام قالوا لضعفائهم الذين أمنوا به عليه السلام " **أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ** "أى أنتم على يقين من رسالته من ربه لنا ." **قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ** " أى قال الضعفاء ممن آمنوا لمردتهم ممن تكبروا"ْ **إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ** " أى بالذى أرسل به من عند الله

مؤمنون لأن المعجزة قامت قاصمة لظهور المتكبرين , وكيف لا تؤمن به وقد طلبتم منه آية تدل على صدقه , فسألكم أى آية تريدون , فقلتم أخرج لنا ناقة من تلك الحجرة , وهذه الآية فى قوة قول الله لنا أن صالحا صادق فيما يبلغنا من عنده سبحانه وتعالى .

قوله تعالى " **قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** " (76) .

"**قال**" هنا استئناف و" **الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا** " هم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب صالح عليه السلام واتبعوا آباءهم على ضلالهم .

قوله تعالى " ْ **إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ** "أى انا بالذى آمنتم به كافرون , وفى هذه الآية الشريفة اشارة الى أن الرسل هم الحد الفاصل بين الحق والباطل , وهم الذين يظهر الله تعالى على أيديهم ما تصدق به العقول السليمة من الخبل , والنفوس المطهرة من الخبث , ويكذب بهم من سجل عليهم القضاء الخلود فى نار جهنم , أعاذنا الله منها , والفاعل هنا فى قوله " **كَافِرُونَ** " تفيد الثبوت والاستقرار بخلاف لو قالوا " **نكفر**" فان الفعل يفيد التمرد , وكأن فعلهم متأصل فى نفوسهم . لا مرد منه ولا مناص . قال تعالى " خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ " ([1]) .

قوله تعالى " **فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** "(77) .

ومعنى هذه الآية الشريفة أنهم عقروا الناقة كبرا وعتوا , وخافوا أمر ربهم استهانة به سبحانه وبرسوله عليه السلام " **وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا** " استهزاء وتكذيبا له , ولو أنهم ظنوا صدقه لما دعاهم ذلك عقر النقة ومخالفة الأمر " **إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** " أى ممن أرسلهم الله تعالى بغير ديننا الذى نحن عليه .

قوله تعالى " **فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**" (78) .

أى خلع قلوبهم الزعر من صوت الصواعق قبل أن تصل اليهم فلما وصلت اليهم أصبحوا فى دارهم جاثمين أى هلكى فى جمود

قوله تعالى " **فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ** "(79) .

وهذه الآية مؤخرة عن تقديم , لأن هذه الآية تقال لمن يسمع ويعقل وهم هلكى , جائز أن تكون كحادثة يوم "**بدر**" حيث ألقى رسول الله قتلى قريش فى بئر ووقف يقول يا أبا جهل ابن هشام ويا امية بن خلف ويا فلان ويا فلان – من مردة قريش – قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا , فقال عمر " أنما تخاطب موتى يا رسول الله " فقال " انهم ليسمعون كما تسمعون فان كانت من تلك الناحية فموضعها التى هى فيه أولى والله أعلم .

قوله تعالى " **وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ** "(80) .

" **الواو**" هنا للعطف " **وَلُوطاً** " معطوف على نوح ومن بعده , وتكون المعنى وأرسلنا لوط , أو تكون المعنى واذكر يا محمد "ε" , - الفاحشة - بينها الله تعالى فى الآية

([1]) سورة البقرة آية : 7 .

وهى الفعلة لوطا حين قال لقومه " **أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ** " من المنكرة جدا التى تأبى أن تعلمها البهائم الراتعة وسنبينها عند تفسيرها فى الآية . " **مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ** " . لأنها لم تقع من أحد من عهد آدم إلا فى زمن لوط عليه السلام .

قوله تعالى " **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ** "(81) .

هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى عما قاله لوط عليه السلام لقومه مشنعا عليهم مهددا لهم لفعلهم الشنيعة التي تستقذرها البهائم الراتعة , ولم يسبق لبنى الانسان الوقوع فيها من لدن آدم الى قوم لوط " **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً** " أى تفعلون ذلك للشهوة فقط " **مِّن دُونِ النِّسَاء** " اللاتى أحلهن الله لكم , فان أتيان الزوجة من حيث أمر الله فيه شهوة ولكن له نفع آخر وهو النسل لحفظ النوع .

فمن القبيح أن يأتى الرجل الرجل للشهوة فقط فيتدنس حتى تكون أرذل من البهائم عقلا وشهوة , وقد قبحت تلك الفعلة لأنها خالفت الحكمة الآلية والوضع الطبيعى والحكم الآلهى , ومن الحكمة الآلهية أن يكون الرجل فاعلا لا منفعلا وعاليا لا سافلا , فالبهيم لا يأتى انثاه الا اذا طلبت ذلك للحمل , وأنه أيضا اذا رأى الأنثى حامل لا يدنو منها ولا يقربها , وكأنه يدرك أن هذا العمل لا يكون نزيها الا اذا كان لعلة الحمل والوضع حفظا للنوع , ولكن الإنسان الذى سخر الله له ما فى السموات والأرض , وأقامه خليفة عنه وأكرمه ببعثه الرسل , كيف تقهره شهوة – التى تقهرها البهائم – ويهوى الى أسفل من دركاتها فيعلو الرحل الرجل , مع أن الرجل لو غلبته شهوته فباشر امرأة لا يحل له مباشرتها لأنها عير زوجته , حكم عليه بالرجم حتى يقتل حدا ليطهر العالم من نجاسته الابليسية , فكيف بمن يغضب الله فى ما يستحى اليهيم الأعجم أن يفعله , وقد أمرنا الله برجم الزانى المحصن , وتولى الله تعالى اقامة هذا الحد بنفسه فرجم قوم لوط بحجارة من سجيل وأهلكهم شر هلكة .

وقد قص الله علينا القصة ليكبح جماح نفوس طاغية يأبى عليها خبث طبعها الا أن تتصل بابليس الذى فتح باب هذا الشر , وكما أن الله تعالى حرم هذا مغلطا فكذلك حرم اتيان النساء فى أدبارهن لأنه هدم لحكمة الله تعالى , وانى لعلم أن الله شديد الغيرة , وبغيرته توعد على محارمه ما لم يتوعد على الكفر به , بدليل قوله تعالى لموسى وهارون " **اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** "([1]) أى لفرعون الذى لم يكن كافرا فحسب , بل كان معيا الالوهة , وقد اخبرنا الله عن دليل كفره وأدعائه الألوهة فى قوله لقومه " **يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي** " ([2]) .

ومن هذا علمنا أن مدعى الالهة , يأمر الله ورسوليه بلين الكلام له , ولكنه عند هذه الفعلة المحرمة الشنعاء هددهم جل جلاله بأقصى العقوبة . نسأل الله تعالى أن يجعل الشيطان علينا سلطنا وأن يحفظنا من كيده أنه هو الحفيظ السلام .

قوله تعالى " **بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ** " أى أنكم لستم عصاة فحسب , أنتم فوق العصاة وقد أسرفتم فى ارتكاب الكبائر حتى بلغتم أسفل دركات الاسراف بمخالفتكم حكمة الطبيعة فوضعتم الأشياء فى غير موضعها , والاسراف نهاية الخطايا فان المسرف تجاوز الحد

([1]) سورة طه آية : 43 – 44 .

([2]) سورة القصص آية : 38 .

الوسط فصار فى نهاية طرف الرزيلة , ولا ينكر عاقل أن للشهوة سلطان , فأباح لنا للتحفظ من الشهوة أربع نسوة , وأباح لنا الطيبات من الأكل والشرب واللباس .

قوله تعالى " **وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** "(82) .

بعد أن اقام لوط الحجة على قومه بما ارتكبوه من شر الفواحش التى تخجل البهائم , جللهم الذل وعلاهم الصغار والخزى وهموا ينتقموا منه بأشد النقم , ولكن الله تعالى جعل الحجة تكسر قلوبهم فتناجوا بينهم فلم يجدوا لهم جوابا يجيبونه به على ما أقامه من الحجة الاقولهم " **أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ** " وأتوا بالضمير جمعا مع أن الخبر عن لوط فقط , ولكن القوم قاتلهم الله كانوا يخافون ممن أسلم معه عليه السلام أكثر من خوفهم منه فاجمعوا على اخراج لوط ومن معه وعللوا اخراجهم بقولهم . " **إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** " أى يتنزهون عن الوقوع فيما يغضب الله تعالى من اتيان الذكران فى ادبارهم , وجائز ان يكون يتطهرون أى يرفعون أنفسهم عن أن تتدنس بمقارفة معاصى الله , لا فرق بين تلك الفاحشة أو غيرها , وأن كان اتيان الذكران فى أدبارهم , شر الكبائر بعد الكفر والقتل , للحكمة التى بيناها قبل وهى أن الأدبار لم توضع للحرث , وفى هذه الفاحشة برهان على كمال انحطاط الإنسان الى دكات الرزيلة , وبهذه الحجة يحرم اتيان المرأة فى دبرها , لأن ذلك قتلا للأنفس وأفسادا للأرض بمحو الذرية , وأن لم يكن فى الآية نص صريح ولكن ورد بطريقة السنة .

قوله تعالى" **فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ**"(83).

بعد ان امر الله تعالى لوطا عليه السلام أن يقيم عليهم الحجة على قبح عملهم وأرتكابهم شر فاحشة فأبوا الا ان يقيموا انفسهم على الكفر , و يا ليتهم وقفوا عند الكفر فقط , ولكنهم بيتوا للانتقام من لوط عليه السلام وممن آمن معه بأعمال وحشية أغضبوا الله تعالى بها عليهم , فقدر الله تعالى , اهلاكهم انتقاما منهم لارتكابهم ما ارتكبوه من مغاضب الله تعالى ,و البلاء اذا نزل يعم ولا يخص أعاذنا الله تعالى , وقوله " **فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ** " خبر منه سبحانه أنه أخرجه من مدينتهم التى قدر الله اهلاكهم فيها , فكان اخراجه عليه السلام ومن آمن معه نجاة لهم مما حل بقومهم , واسند النجاة اليه سبحانه تعظيما للوط عليه السلام ومن آمن معه وطمئنة لقلوب أهل الايمان الذين يكذبهم ويؤذيهم أهل الكفر والنفاق فى كل زمان , " **وَأَهْلَهُ** " أى من آمن من أبنائه وقومه , " **إِلاَّ امْرَأَتَهُ** " من النجاة لأنها رغم كونها من أهله الا أنها كفرت بالله وخانت زوجها فأهلكها الله تعالى مع الكافرين و " **كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ** " أى ان امرأة لوط تخلفت مع من كفروا بالله وكذبوا بلوط فأقامت مع مرتكبى أقبح الفواحش وهو اتيان الذكران فى أدبارهم وتلك الكبيرة وقعت من الرجال لا من النساء , ولكن كانت امرأة لوط تعين مرتكبى تلك الفاحشة على زوجهاكفرا وعنادا , ولهذا أخبرنا الله تعالى عنها بقوله " **كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ** " الذين أقاموا فى المدينة كفرا بالله تعالى وعنادا للوط عليه السلام فاهلكها الله معهم بحسب نيتها وعملها , ولذلك لم يقل وكانت من الغابرات , " **والغابر**" فى اللغة هو الذى عمر عمرا طويلا , أو الذى بقى مع قوم فاسدين كما بقيت امرأة لوط مع الغابرين .

قوله تعالى " **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** "(84) .

تأويل هذه الآية الشريفة أن الله تعالى بعد أن بعث لوط لقومه ينذرهم عاقبة فعل الفاحشة واقدم الحجة عليهم فأبوا الا الكفر بالله تعالى وتكذيبه عليه الصلاة والسلام

والمسارعة الى أذيته وضرره ومن معه فانتقم الله تعالى منهم كما تقدم واخبرنا سبحانه وتعالى بقوله . **" وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً "** أى وأمطرنا عليهم مطر السوء انتقاما منهم فى الدنيا على كفرهم بالله وارتكابهم أشر فاحشة وهى اتيان الذكور فى أدبارهم , وهذه الآية تنذر كل من ارتكب تلك الفاحشة بسرعة الانتقام منه فى الدنيا , قوله تعالى" **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ"**. بعد أن امطر الله عليهم هذا المطر الذى أهلكهم عن آخرهم يقول لحبيبه محمد ε - انظر يا محمد الى هؤلاء المجرمين الذين أفسدوا فى الأرض كيف كانت عاقبة أمرهم فى تلك الدار الدنيا قبل الآخرة – **" والمجرم"** هو الظالم المتعدى حدود الله بارتكاب ما يكرهه الله تعالى وأى عاقبة أسوا من تلك العاقبة وكيف لا وقد امطرهم الله مطرا من مواد مهلكة فاستأصلهم عن آخرهم وأنجا الله تعالى لوطا ومن آمن معه حيث أمرهم سبحانه بالخروج من القرية الظالم أهلها .

قوله تعالى **" وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ "**(85) .

أى وأرسلنا الى مدين أخاهم شعيبا **" مَدْيَنَ "** اسم قبيلة وهم أبناء مدين ابن مريان بن الخليل عليه السلام **"و شُعَيْب "** هذا هو ابن مكيل من مدين وكان القوم يبخسون المكيال والميزان ويعبدون الأصنام والانداد , كما كان قوم لوط يعبدون غير الله ويأتون الذكران فى أدبارهم , فقام شعيب عليه السلام يدعوهم الى عبادة الله تعالى ومعاملة الناس بالعدل , فيزنون لهم بما يزنون به مهم , ويكيلون لهم بما يكيلون به منهم .

وهذه الآية خبر من الله تعالى عن قول شعيب لهم **" اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ "** وقد تقدم الكلام عليها , ومعنها أن خصوا الله بالعبادة وأفردوه بها دون غيره , لأنه سبحانه هو العلى المتعال الذى تنزه عن أن يكن له ولد أو والد أو صاحبة أو شريك أو ند .

" قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ " أى حجة ظاهرة جلية من ربكم **" فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ "** أى أكملوا للناس المكيال والميزان اذا أعطيتموهم وأعدلوا فى الكيل والميزان اذا أخذتم منهم , **" وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ "** أى تظلموهم فتكتالوا منهم بمكيال تظلمونهم به فى مالهم وتكبلون لهم بمكيال تظلمونهم بسبب ما تنقصونه منهم , فلا تفعلوا هذه الظلم فى الميزان فأن ظلم لناس وان كان الظلمة يرونه خيرا الا ان عاقبته شر فى الدنيا والآخرة .

" وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا " معنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يخبرنا أنه أصلح الأرض ببعثه شعيب ليؤمن قومه بالله وحده ويعبدوه مخلصين له الدين , وليرجعوا الى الطاعة من المعصية والكبائر , فاذا هم أبوا أن يقبلوا من شعيب ما جاءهم به من عند الله يكونوا قد أفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها وأفسادهم الأرض بعد أن جاءتهم البينة باصلاحها يكونوا قد عرضوا أنفسهم لعاجل النقمة فى الدنيا وأليم العذاب يوم القيامة .

" ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ " الاشارة عائدة الى ما تقدم مما بعث الله به شعيبا اليهم من البيان الذى بقبولهم له , وقيامهم بالاخلاص فى عبادة الله تعالى , ورعاية العدل والرحمة فى معاملتهم للناس فى الكيل والميزان وغيرهما , يكون هذا العمل خيرا لهم فى الدنيا بدوام العافية والأمن ووسعة الأرزاق وكثرة الأولاد , وفى الآخرة بالعفو والمغفرة من الله تعالى , وبالخلود فى الجنة النعيم .

والكاف والميم يشيران فى قوله ذلكم لجماعة المخاطبين " **إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** " أى ان كنتم صدقتم الله ورسوله الذى أرسله الله اليكم.

وهذه الآية الشريفة دليل على أن كل الأعمال التى فرضها الله على عباده لايقبلها من عامل منهم اذا لم يكن مؤمنا بالله ورسوله , فكما أن كل أعمال البر اذا قام بها غير مؤمن لا تنفعه ولا تقبل منه , فكذلك كل المعاصى , اذا عملها المؤمن فان الله قد يغفرها له لأن نور الايمان يمحوا ظلمات المعاصى , كما أن ظلمة الكفر تمحو نور الطاعات .

قوله تعالى " **وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** "(86) .

هذه الآية الشريفة مما اخبرنا الله به عن قول شعيب لقومه من لأمر بعبادة الله وحده ومن النهى عن خسران المكيال والميزان وعن بخس الناس أشيائهم وعن الافساد فى الأرض بعد أصلاحها , وان يقعدوا بكل طريق يتوعدون الوافدين على شعيب للاسلام ولاتباع الحق وقعد على الطريق وبالطريق وفى الطريق سواء , وذلك أنهم كانوا يجلسون على مداخل الطريق يمنعون القادمين على شعيب للأهتداء بهداه الذى جاء به من الله تعالى و" **تُوعِدُونَ** " تكون بالأمر الصريح فيقال – وعده بالخير ووعده بالشر – فاذا أبهم الموعد به قيل أوعده وتوعده " **وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ** " أى تطردون وتؤدون أهل الايمان شعيب لتصدوهم عن الايمان الى الكفر " **وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً** " أى تبثون الريب والشكوك فى دين الله تعالى لتجعلوا الناس يسيرون على طرق معوج ليست على الحق " **وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً** " من حيث العدد والمال والماشية والحراثة والصناعات " **فَكَثَّرَكُمْ** " أى فجعلكم كثيرا عددا ومالا وزراعات وتجارات وصناعات وتلك النعم الغزيرة توجب الشكر على من تفضل الله عليه بها .

" **وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** " أى وتدبروا واعتبروا بما الت اليه حال من أفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها وتكذيبهم رسله عليهم الصلاة والسلام من نوح وقوم هود وقوم صالح ومن قبلهم كقابيل وأبنائه .

قوله تعالى " وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ " (87) .

هذه الآية الشريفة خبر أيضا من الله تعالى عن بقية قول شعيب لقومه , ومعنى هذه الآية انه يقول لهم ان كان الذى جئتكم به من عند الله تعالى قد قبله منكم طائفة بما من الله به عليهم من الهدى وانشراح صدورهم له من غيره اكراه , وأبان آخرون بما فطرت عليه نفوسهم من العناد والجدل والخصومة وبغض الحق , فمن الفضيلة أن يصبر الذين لم يقبلوا الايمان فان المؤمنين لم يضرهم شيئا , وانى على يقين من ارسال الله لى اليكم , والصبر ينتج الفوز بالمطلوب بأن يظهر الله لكم آية كبرى تجذب قلوبكم الى الحق فتكونوا مؤمنين جميعا , أو يظهر حكم الله بيننا وبينكم فيقضى بما قدره سبحانه وتعالى فان العناد والشقاق والخصومات ومحاربة الحق لا تنتج الا الهلاك وهى سنة الله في من حاربوا رسله .

وهذه الآية حكمة عليه وحجة بالغة , ولكن الهدى هدى الله " وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ " أى هو الحكم العدل المنزه عن الظلم والجور , والمراد بخير الحاكمين أنه سبحانه كلف عباده بتنفيذ احكامه فحكموا بأمره فهم عبيد حكام بأمر الحكم العدل , وهو سبحانه خير الحاكمين , وأنتظار حكمه جلت ذاته عبادة الأنبياء والملائكة وخواص المؤمنين .

تم بحمد الله .....